السبت 14 آب 2021
العدد 4413 السنة السادسة عشرة
Samedi 14 Août 2021 nº 4413 16ème année

24 صفحة
2000 ليرة

الأخبار
al-akhbar
www.al-akhbar.com

كلمات

إبراهيم عبد المجيد
الهروب من الذاكرة

تحالف المنظومة مع الخارج

محاصرة عون

- باسيل يطلق المعركة ضد بري وسلامة
- الحاكم يعاقب الناس لتحرير سعر الدولار
- سرقة الصهاريج برعاية عسكر الدولة

[2 ـ 5]

(أ ف ب)

تونس

انقلاب «النهضة»
اعتراف... فتنازل... فتصحيح

10

تقرير

الرياض - واشنطن
اختبار أيلول آتٍ

13

تحتجب «الأخبار» يوم الاثنين لمناسبة انتقال السيدة العذراء

سوريا

من شرق الفرات إلى غربه
مغامرة العبور تحت نيران «قسد»

11

على الغلاف

المنظومة تحاصر عون سلامة يلتزم قرارات ميقاتي

إبراهيم الأمين

ضاق الجمع ذرعاً، ولم يضق الجميع ذرعاً. والجمع، هنا، هو من يقف في صف المظلوم الذي تجري محاولة سفك دمه هذه الأيام. ومن يراد له الموت بكل الطرق، قتلاً أو جوعاً أو عطشاً أو غيلة إن قدر الظالمون. والجمع، هنا، هو من ضاق ذرعاً بلعبة كبيرة يتشارك فيها لاعبون باتوا أكثر شراكة في كل ما يقومون به، من داخل السلطة وخارجها، ومن داخل مؤسسات الدولة وخارجها، وكل ذلك برعاية خارج يريد مقتلة كبيرة في هذه البلاد.

ما فعله رياض سلامة في الأيام القليلة الماضية ليس نتاج أفكاره الشيطانية فحسب، بل هو، في هذه اللحظة، تلميذ نجيب ينفّذ أجندة فريق تقاطعت بين أطرافه المصالح بصورة عجائبية لا نتيجة لها سوى تدمير الهيكل. وغاية من يريد التدمير ليست إعادة بناء دولة عادلة وقادرة، بل أن يحكم أهل الغاب العباد من جديد، باسم الطائفة والمذهب والقبيلة... وبرعاية داخل وخارج شريكين في السفك، وبتواطؤ مع سارقي غضب الناس من كل ما يُسمّى ثورة وانتفاضة وحراكاً مدنياً، بكل فروعه السياسية والنقابية والحقوقية والإعلامية.

ما الذي يحصل؟

قرر تحالف الحكم الذي أمسك بالبلاد منذ ثلاثين عاماً قيادة أكبر انقلاب في تاريخ لبنان. وهو تحالف يجمع، في تقاطع للمصالح، الأقوى بين ممثلي الطوائف، ويشاركه تنفيذيون يسعون إلى مناصب ومكاسب. تحالف يجمع نبيه بري ووليد جنبلاط وسعد الحريري وسليمان فرنجية ونادي رؤساء الحكومات السابقين، ومعهم البطريرك الماروني بشارة الراعي ومن معه من حلفاء في المرجعيات الدينية الأخرى، وأهل التطبيل والتزمير من وسائل إعلام تديرها وتموّلها الولايات المتحدة والسعودية والإمارات، وخصوصاً ثلاثي «الجديد» و«المؤسسة اللبنانية للإرسال» و«مر تي في»، وحشد من المواقع الإلكترونية والصحف والكتبة الذين تموّلهم سفارات أميركا وفرنسا وألمانيا وبريطانيا وسويسرا وجمعيات وحوش الرأسمالية المنتشرة في كل الأرض.

وعلى الأرض، هناك حشد السارقين الكبار، في القطاع المصرفي والتجاري بكل صنوفه، ومافيا المحروقات ومشتقات النفط، وكارتيل الأدوية والمواد الغذائية، وإلى جانبهم جيش من الرعاع الذين لا يعرفون من الاحتجاج سوى قطع الطرقات والسطو على مقدرات المواطنين العاديين... كل هؤلاء يعملون على هدف واحد: عزل المقاومة، والخطوة الأولى تكون بإطاحة ميشال عون وتياره، أما الأدوات فهي كل ما تصل إليها أفكارهم السوداء وأياديهم وفتنهم المتنقلة والمعمول عليها ليل نهار. ويتكل هؤلاء على قوى تحنّ إلى أيام الجنون الدموي بقيادة «القوات اللبنانية» وبعض الفاشيين الذين يفكرون بالتقسيم ورسم حدود الولايات بالدم فقط. ومعهم صمت قاتل تمارسه مؤسسات أمنية وعسكرية وقضائية وحقوقية، باتت في قلب المؤامرة ومن أبرز أدواتها العاملة من دون توقف على الخراب الكبير.

عندما بادر رياض سلامة إلى رفع كل الدعم عن المشتقات النفطية، لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه. استبقَ ذلك باجتماعات تفصيلية مع الرئيس المكلف نجيب ميقاتي لمناقشة خطط المستقبل. كما التقى كل من يمكن أن يكون شريكاً في هذه العملية في عالم المال والأعمال. وهو حصل على غطاء مباشر لخطوته من بري وجنبلاط والحريري والراعي قبل كل الآخرين. وعندما قصد قصر بعبدا لإبلاغ المجلس الأعلى للدفاع، كان يعرف أن حسان دياب بات أسير الخوف من السجن، وأسير ترهيب يومي يُمارَس عليه باسم حفظ حقوق وصلاحيات أهل السنة، وفي مكتبه من يعمل ليل نهار على هذه الخطة، من موظفين ومستشارين يبحثون عن أدوار مستقبلية.

عندما سارع رياض سلامة إلى إعلان رفع الدعم، لم يكن ينتظر موافقة من هم في الحكم اليوم. بل تصرف على أساس أن ميقاتي رئيس فعلي للحكومة، وأن القوى المهيمنة على المجلس النيابي قد منحته الثقة مسبقاً، وعلى أساس أن جدول أعمال الحكومة قد بُتّ ولا حاجة لانتظار موقف أحد. يكتفي سلامة، ومن خلفه كل الحلف، بصمت حزب الله الملزِم بصمت من يريد تجنب الانجرار إلى فتنة. ويستند إلى أن الرئيس عون لا يمون على أحد في الدولة. لكن رهانه الأكبر أن أحداً في شارع 17 تشرين لن يتحرك ضده، وأن من يريد مخاصمته هو فريق يتعرض لأبشع أنواع الترهيب، بقيادة التيار الوطني الحر.

- المسارعة إلى وضع خطة لزيادة كل أنواع الضرائب والرسوم، خصوصاً

(هيثم الموسوي)

- رفع الدعم وتحرير العملة بصورة كاملة وفق شروط كل المؤسسات الدولية وشروط التجار والفاسدين والمحتكرين.

الجمركية منها وما يتصل بالعمليات العقارية، ودفع كل مؤسسات الدولة إلى البحث عن سبل لرفع مداخيلها ولو على حساب الناس داخل لبنان وخارجه.

- وعد الناس بزيادة الأجور ضمن سلة لا تفي بغرض مواجهة مصاعب العيش.

- تفاهم أولي مع شركات عالمية لبيعها المرافق المنتجة في لبنان والمتصلة بحياة الناس، من كهرباء وهاتف ومياه وطرقات وإنترنت ومطار ومرفأ وريجي وغيرها.

- إعادة تخمين موجودات المصارف اللبنانية لمنع إعلان إفلاسها ولتعويم غالبيتها ضمن خطة إنعاش للمنظومة المالية اللصيقة للمنظومة السياسية الحاكمة.

- درس قانون للانتخابات وإدارة عملية انتخابية ترضي الخارج بإفساح المجال أمام عدد من منتجات الغرب المسماة «مجتمع مدني»، وجلّهم ممّن استقالوا من المجلس النيابي، للحديث عن تبدل وتغيير وتنويع. علماً أن بين رموز الجماعات التي تدعي النطق باسم قهر الناس، من باشر العمل على الانتخابات، وأعدّ لها صناديق تمويل من الداخل

> المقاومة التي من حقها وواجبها عدم الانجرار إلى الفتنة، لا يمكنها أن تعارض احتجاجاً صار خياراً وحيداً أمام التيار الوطني الحر

والخارج، وعنوان عملها تدمير التيار الوطني الحر ومحاولة عزل حزب الله.

- منح المؤسسات العسكرية والأمنية هامشاً لإدارة ذاتية، لكن شرط البقاء ضمن التحالف الذي ترعاه الولايات المتحدة، بما يجعل هذه القوى صامتة عن السارقين والمحتكرين والمجرمين، بذريعة عدم الاصطدام بالناس وبالشارع.

عملياً، ما يجري منذ أيام هو إدخال البلاد في موجة جديدة من الضغط الأقصى على الشارع ليكون انفجاره في وجه ميشال عون وتياره وفي وجه حزب الله. ومسموح لهؤلاء باستخدام كل ما يقع بين أيديهم، من جريمة المرفأ، إلى العنوان العام للأموال المنهوبة أو المهربة، وصولاً إلى الصمت عن جرائم الفتنة المتنقلة بين منطقة وأخرى.

ثمة لحظة قاسية يعيشها لبنان. وثمة حاجة إلى مبادرة تقلب الطاولة في وجه هذا التحالف الذي لا يخشى الفوضى لاعتقاده بأن الفوضى تعيد إنتاج العصبيات التي تطيل في عمر هذه الزعامات، ومعها كل أدواتها في الدولة والقطاع الخاص.

ليس غريباً أن ينتفض التيار الوطني الحر، وأن يذهب بعيداً في معركة الدفاع عن نفسه، كما أنه ليس منطقياً تركه وحيداً.

مسؤولية المقاومة، اليوم، ليست في النزول إلى الشارع إلى جانب الغاضبين الحقيقيين. بل في استمرار تفادي المواجهة والأزمة الكبرى. لكن المقاومة التي من حقها وواجبها عدم الانجرار إلى الفتنة الكبرى، لا يمكنها أن تعارض احتجاجاً صار خياراً وحيداً وإلزامياً أمام التيار الوطني الحر.

أقل الكلام، إعلان الرفض الحقيقي لكل ما يجري، وهو إعلان يؤسس عليه لمن يريد تحقيق توازن مع المجرمين الذين لا يردعهم شيء!

باسيل يرسم خريطة 2022: معركتنا ضد برّي وسلامة

اتخذ رئيس التيار الوطني الحرّ قرار المواجهة بعد انحسار عاصفة 17 تشرين وما تلاها. الخطة السياسية القضائية الشعبية واضحة والعدوّ واحد: رئيس مجلس النواب نبيه بري. على هذه القاعدة، احبط التيار ما يعتبره «محاولة بري رمي كرة رفع الدعم في ملعب ميشال عون وافتعال أزمة شبيهة لما جرى عند رفع تعرفة الواتساب». فيما وجّه ما يسميه «صفعة لرئيس المجلس» عبر تطيير نصاب الجلسة النيابية أول من أمس. وما بين هذا وذاك، يخوض باسيل حرب وجود مع بري الذي يرى فيه رأس حربة في إسقاط كل القوانين الإصلاحية وكل الحكومات التي لا يرأسها سعد الحريري

حاول سلامة، بدفع وغطاء من بري، تحميل عون رفع الدعم عن المحروقات عبر الإعلان عنه بعد جلسة مجلس الدفاع الأعلى (هيثم الموسوي)

رلى إبراهيم

بالنسبة إلى التيار الوطني الحر، انتفاضة 17 تشرين 2019 كانت بمثابة إعصار كبير، رتّب عليه محاولة الصمود حتى يمرّ الإعصار بأقل الأضرار الممكنة. يومها، اتخذ قرار بإقفال الأبواب والنوافذ... والانتظار. معركة الأحزاب السياسية المناهضة لرئيس الجمهورية ميشال عون ورئيس التيار الوطني الحر جبران باسيل، معطوفة على هتافات الشارع المصوّبة بشكل خاص نحو الاثنين، كانت لها حسناتها في الميزان العوني، لا لشيء سوى أنها بدأت باكراً. فمنذ عامين، استنفد هؤلاء كل الشتائم والشعارات والعناوين السياسية التي يمكن أن تُستعمل ضد العهد وتياره، واستخدمت الأحزاب كل أوراقها وكل ما يمكن القيام به لإنهاء الحالة العونية. دام الأمر عاماً كاملاً، تخلّله انفجار 4 آب وما تلاه. المفترق الأساسي لدى قيادة التيار كان يوم إسقاط حكومة حسان دياب؛ ففي السابق، تركزَ همّ باسيل على صدّ العاصفة والبقاء حيّاً ولو بالحدّ الأدنى. لكن ما بعد 4 آب و«إقالة» الحكومة، صارت العناوين واضحة جدّاً بالنسبة إليه. مذذاك، بدأت معركة عونية موازية ببوصلة ذات توجّه واضح، لا صوب رئيس حزب القوات اللبنانية سمير جعجع أو رئيس تيار المردة سليمان فرنجية أو رئيس الحكومة السابق سعد الحريري أو غيره، بل نحو رئيس مجلس النواب نبيه بري حصراً. عندما انجلت الصورة، باتت الخطوة التالية غربلة المحاور: من في صفّ بري ومن هو في صفّ التيار. تنحدر الحلقة من المسؤولين السياسيين الى القضاة، وصولاً الى الضباط والمديرين العامين وكل العاملين في مراكز مؤثرة. لم يكن القرار مجرّد رفع سقف سياسي ينتهي بالوصول الى تسوية ما، بل وضع التيار كل أدواته على الطاولة لاستخدامها بهدوء وحذر في حربه المُعلنة جهاراً. هو «صفعة لبري: كنا رأس حربة في هذا الملف لثقتنا بالقاضي طارق بيطار، ولأننا نعارض بشدة أن يكون الطرف الحكم في هذا الملف، كل من بري وإيلي الفرزلي والدائرة المحيطة بهما. فيما القيمة المضافة التي حققناها هي نشوء نوع من الانفتاح مع أشخاص ليسوا مناصرين للتيار ولا في الحلقة الضيقة، بل بعضهم من أهالي الضحايا وبعضهم الآخر ممن ينشطون في الشارع ويمطروننا بالانتقادات. وجدنا أرضية مشتركة يمكن التفاهم حولها». أما الملف الثاني، فهو تحويل «الاستهداف الى مادة ترتدّ على أصحابها. فقد نجحنا في قلب سحر سلامة عليه عند تعمّده الإعلان عن رفع الدعم عن المحروقات بعد اجتماع المجلس الأعلى للدفاع برئاسة عون. جرى ذلك بالتزامن مع إطلاق القصر الجمهوري الدخان الأبيض لتأليف الحكومة». وهنا، العونيون «على أتمّ الثقة بأن بري هو المخطّط، وسلامة الأداة التنفيذية، فيما تركزت الخطة على أن يكون رفع الدعم هو النقطة التي تفيض معها الكأس فتنطلق 17 تشرين جديدة ضد العهد». لكن مسارعة التيار الى إسقاط «المؤامرة» عبر تغريدة لباسيل يُحمّل فيها سلامة تداعيات هذا الإجراء ويدعو الحكومة الى محاسبة سلامة، ورئيس الجمهورية الى الضرب على الطاولة، تلاها تحرّك ليلي لشباب التيار أمام منزل سلامة؛ جنّب باسيل جولة شتائم جديدة. فيما آثر رئيس التيار يوم أمس دعوة الحاكم وكل من يغطونه سياسياً، وهو يقصد بهم بري بشكل رئيسي، ثم الحريري وجنبلاط، الى إيقاف الانفجار ورفع الدعم التدريجي الى حين إقرار البطاقة التمويلية. قابلها رئيس الجمهورية بدعوة مجلس الوزراء الى الانعقاد بصورة استثنائية للضرورة القصوى في جلسة تخصص لمعالجة تداعيات أزمة المحروقات، مع إشارته الى رفض سلامة الرجوع عن قراره، رغم كونه شخصاً من أشخاص القانون العام وأن الحكومة هي التي تضع السياسات العامة حتى خلال تصريف الأعمال بمعناه الضيّق. هذا الهجوم المضادّ والاستنفار العوني، ساهما، بشكل أو بآخر، «في دخول حلبة المواجهة بقوة وليس من موقع ضعيف ومستسلم كما جرت العادة»، بحسب مسؤولين في التيار.

ملفات غادة عون

قرار باسيل بالاستنفار والمواجهة بعد انحسار العاصفة، وردّ الحملات المقبلة بشراسة، يقابله عمل هادئ على الملفات القضائية؛ وأبرزها ملف تهريب الأموال الذي تتابعه القاضية غادة عون. فخلافاً لما يُشاع، يؤكد مسؤولون في التيار أن القاضية عون تتابع ما بدأته في ما يخص شركة مكتّف والأموال المهرّبة الى الخارج. وبحسب المعلومات، «استمعت عون يوم أمس الى الرئيس السابق للجنة الرقابة على المصارف، فيما تغيّب حاكم مصرف لبنان رياض سلامة، فحدّدت له جلسة أخرى يفترض أن تكون الأسبوع المقبل، وإذا لم يحضرها مجدداً، فستُصدر في حقه مذكرة إحضار». فبموازاة التحرك السياسي وفي الشارع، يعمل التيار على ملف قضائي بعيد عن الإعلام ويحاول أن يتجنب فيه أكثر الأخطاء الممكنة حتى يكون «مُبكّلاً» من جميع النواحي، على أن يجد اللحظة السياسية المناسبة للإعلان عنه. وقد تبيّن للقاضية عون خلال عملها أخيراً، على ما تقول المصادر، «تهريب شركة مكتف ملياري دولار في الأشهر الأخيرة من عام 2019 وعام 2020، من دون أن تكون مصحوبة بأسماء، ما يعني أنها تدخل في إطار تبييض الأموال. وتلك الأموال هي غير الـ 750 مليون دولار التي حوّلها أحد المصارف. وبما أنه يصعب على عون اللحاق بمسار خروج هذه الأموال بمفردها، فقد طلبت مساعدة أميركية وفرنسية وسويسرية، فلم يصلها جواب إلا من سويسرا التي وعدت بأن تبحث بالأرقام والمعلومات المقدمة لها». بموازاة ذلك، تبيّن للقاضية عون أن سكة تهريب الأموال افتتحت بعد اعتقال الحريري في الرياض عام 2017، بشكل كبير ومنتظم. ملف تهريب الأموال، يقابله ملف لسلامة يعمل عليه مسؤولون عونيون بالتعاون مع مجموعات وأفراد في باريس. بعض هذه المجموعات

> طلبت غادة عون مساعدة أميركا وفرنسا وسويسرا في معرفة وجهة ملياري دولار مهرّبة من دون أسماء

قريبة من التيار، وبعضها الآخر من الانتفاضة، وبعضهم لبنانيون فرنسيون احتُجزت أموالهم في المصارف اللبنانية. يجري كل ذلك، بما فيها الدعاوى المقدمة في فرنسا ضد سلامة، بالتعاون مع رئيس جمعية «Sherpa» المحامي وليم بوردون الذي يمثّل رأس الحربة في هذا الملف، وتعنى جمعيته بالدفاع عن المواطنين ضحايا عمليات الفساد.

ترى القيادة العونية أن معركة إسقاط العهد وباسيل بدأت وانتهت باكراً، أي قبيل عامين من الانتخابات، وتلك نقطة انطلاق جيّدة لإعادة استنهاض القاعدة الشعبية التي يدرك رئيس التيار أنه خسر منها جزءاً لا يستهان به. لكن ثمة إيجابيات لهذا السقوط الكبير، إن كان من ناحية اكتشاف «العونيين العاملين ضد المصلحة العونية»، و«الأفراد الذين يشكّلون أثقالاً تشدّ التيار نحو الأسفل ومعظمهم نواب لم يقتنع بعد رئيس التيار أو هو متردّد في تغييرهم رغم ذلك». كذلك، يحصل أخيراً أن خرج العونيون من تقوقعهم ويسعون بشكل أو بآخر الى الانفتاح على من يمكن مدّ اليد إليهم، والقاعدة الأولى ألّا يكونوا «حلفاء أعداء» كمن ركبوا بوسطة التيار في انتخابات 2018 وتركوها لاحقاً ليركبوا بوسطة الثورة. في الخلاصة، بدأ التيار يرسم خريطة انتخابات 2022 مع إدراكه مسبقاً أن «الطريق ستكون وعرة ومحفوفة بالأعداء، ولا سيما أنها ستتزامن مع نهاية عهد ميشال عون». لكن التيار مرتاح الى أن خصومه «رموا كل أوراقهم دفعة واحدة، فيما لا يزال هو يحتفظ بملفاته لرميها تباعاً في الوقت المناسب».

على الغلاف

مصرف لبنان يرهن الناس لا محروقات قبل تحديد سعر الدولار

إذا لم يحسم مصرف لبنان أمره ويحدد سعر الدولار لاعتمادات المحروقات، فإن شركات النفط لن توزع شيئاً من مخزونها، بما يُنذر بالمزيد من الشحّ في مادتَي البنزين والمازوت. ما حُسم فقط أن سعر السوق بالنسبة إلى المصرف هو سعر منصة صيرفة، أي ما يعادل 17 ألف ليرة. لكن نتيجة الضغوط السياسية والشعبية، ثمة من يؤكد أن المصرف يدرس إمكانية تحديد سعر 12 ألف ليرة كمرحلة انتقالية إلى حين إقرار البطاقة

(مروان بوحيدر)

إيلي الفرزلي

لا يزال مصرف لبنان يُصرّ على تعميم الفوضى في سوق المحروقات. اتخذ قراره برفع الدعم يوم الأربعاء، ومرّ يومان من دون أن يُوضّح كيفية تنفيذ هذا القرار. النتيجة كانت، كيلومترات من الطوابير أمام المحطات التي فتحت أبوابها، وهي قلّة، مقابل انكفاء لأغلب الناس عن استعمال سياراتهم أو عن فتح مصالحهم ومحالّهم ومصانعهم، بانتظار معرفة سعر البنزين والمازوت. الأثر المباشر كان على مولدات الكهرباء، غالبيتها انتقلت إلى تقنين قاس، فيما أخرى فضّل أصحابها التوقف عن تشغيلها تماماً، إما بسبب عدم توفر المازوت، وإما بسبب انتظار جدول الأسعار الجديد، وعدم هدر المازوت على السعر المتدنّي.

في المقابل، كانت وزارة الطاقة تعيش عجزاً في اتخاذ القرار. حجتها أنها لا تستطيع إصدار جدول تركيب الأسعار قبل معرفة سعر الدولار

> **مصرف لبنان يراهن على دولارات مساعدات النازحين لتغطية الاستيراد**

> **اعتماد سعر السوق سيؤدي إلى سحب 5 آلاف مليار ليرة شهرياً من السوق**

الذي سيُحدده مصرف لبنان. في المرة السابقة عندما خُفض الدعم، كان السعر واضحاً: بدلاً من 1500 ليرة للدولار صار 3900 ليرة. هذه المرة الأمر مغاير. في البيان الذي أصدره المصرف المركزي وأعلن فيه إلغاء الدعم، أشار إلى أنه سيبيع الدولار على سعر السوق، من دون أن يُحدد هذا السعر. علماً أنه بصفته البائع وجب عليه أن يعلن سعر المبيع للشركات، التي ستعمد إلى فتح اعتمادات في المصارف على السعر الذي يُقرره. أي أمر آخر لا يعني سوى المزيد من التأجيل والتأخير في فتح الاعتمادات، وبالتالي التأخير في مدّ السوق بحاجته من المحروقات. وهي حاجة باتت شديدة، بالنظر إلى الشحّ الكبير في المتوفر من المادتين، والذي تؤكد المعلومات أنه لن يكفي لأكثر من ثلاثة أيام.

وفيما أكدت مديرية النفط في وزارة الطاقة وجوب الاستمرار بالبيع على السعر الذي أصدرته، والمحدد على أساس سعر 3900 ليرة للدولار، فإن الشركات تعتبر أن هذا الإعلان لا قيمة له إذا لم يؤكد مصرف لبنان أنه سيغطي الكمية المتبقية على السعر نفسه. فمخزون الشركات، سبق أن حصلت على الموافقة المسبقة من مصرف لبنان لاستيراده، لكنها لم تحصل على ثمنه منه بعد (يدفع المصرف ثمن الشحنة بعد تصريفها). فمن يضمن لها أن يوافق المصرف على فتح الاعتمادات على سعر 3900 إذا وزعت على السعر المحدد من قبل وزارة الطاقة؟ وعليه، أعلن رئيس تجمع الشركات المستوردة للنفط جورج فياض أنها لن تسلم البنزين والمازوت للمحطات لأنها لا تعلم على أي سعر سيتم التسليم، فمصرف لبنان أبلغهم أنه سيعتمد سعر صرف السوق للدولار ووزارة الطاقة لا تزال تعتمد سعر 3900 ليرة للدولار، فيما عمدت الجمارك إلى كيل الخزانات تمهيداً لإجراء المقاصّة. وإذا كانت الشركات من قبل قد أبلغت الموزّعين أنها لن تسلّم غداً (اليوم)، فإن ذلك يعني الانتظار حتى يوم الثلاثاء (الإثنين يوم عطلة)، ما يؤدي إلى إمكان فقدان المحروقات بشكل تام من السوق. فمن يملك مخزوناً من المحطات فلن يتخلى عنه، إلا إذا تولّت القوى الأمنية والجيش مسؤولياتها، في إطار التعبئة العامة، وذهبت إلى إلزام هذه المحطات بفتح أبوابها. وهو أمر مستبعد أن يجري على نطاق شامل، لأن الأمر سبق أن طُرح في الاجتماع الوزاري الذي عُقد أول من أمس في السراي، لكنه لاقى رفضاً من قبل وزيرة الدفاع، التي ترفض إقحام الجيش في هذه القضية.

مع إجماع مختلف أصحاب المصلحة على أن محور المشكلة حالياً هو مصرف لبنان، فقد أكدت مصادر مصرفية مطلعة أن المصرف لم يحسم أمره بشأن السعر. لكن المحسوم أن المقصود بسعر السوق ليس السوق السوداء، التي لا يعترف بها مصرف لبنان، بل سعر منصة صيرفة التي تمثل بالنسبة إليه سعر السوق. فهو لم يعد يحدد سعرها بل يترك الأمر إلى المصارف والصرّافين، المطلوب منهم تسجيل عملياتهم على المنصة، فيما يكتفي بإصدار بيان يشير فيه إلى حجم التداول. على سبيل المثال، أعلن منذ يومين أن حجم التداول على منصة صيرفة بلغ مليون دولار بمعدل 17900 ليرة للدولار، وفقاً لأسعار صرف العمليات التي نُفذت من قبل المصارف ومؤسسات الصرّافة على المنصة (تشكل نحو 10 في المئة من عمليات الصرف التي تجري يومياً). وبالتالي، فإن هذا السعر، بالرغم من أنه لا يمثّل إجمالي التداول في السوق، فهو السعر المعترف به والذي يسعى المصرف إلى زيادة التداول عليه من دون جدوى. وبحسب المصدر، فإن السعر المشار إليه هو سعر وسطي بين مختلف العمليات، إذ أن بعضها يمكن أن يُسجل على سعر 15 ألف ليرة وبعضها على سعر 20 ألفاً، وهكذا دواليك. وبحسب المعلومات، فإن المصرف لو أراد اليوم تحديد سعر الدولار لاستيراد المشتقات النفطية لاعتمد السعر الوسطي لكل الأسبوع أي 17 ألف ليرة، لكنه حتى اليوم لم يتخذ القرار. إذ تشير المصادر إلى أن الضغوط السياسية والاحتجاجات الشعبية المستمرة منذ يومين، جعلت بعض أصحاب القرار في المصرف، يدفعون باتجاه المضي قدماً باعتماد سعر 12 ألف ليرة للدولار، كمرحلة انتقالية إلى حين إقرار البطاقة التمويلية واستفادة عدد لا بأس به منها، على اعتبار أن التحوّل من سعر 3900 ليرة إلى 17 أو 18 ألفاً هو تحول كبير، لن يكون بمقدور أحد تقدير تداعياته.

مهما كان السعر، فإن الثابت حتى اليوم سيكون تأمين المصرف المركزي للدولارات، على ما أعلن في بيانه. وهذا يقود إلى السؤال عن مصدر هذه الأموال، طالما أنه يؤكد أنه وصل إلى حدود الاحتياطي الإلزامي، وطالما أن المجلس المركزي حاسم لناحية عدم المسّ به، خوفاً من أي تداعيات قانونية. وبالتالي لن يوافق على ذلك إلا في حال أصدر المجلس النيابي قانوناً.

هنا تعود مصادر متابعة لتتحدث عن «كذبة الاحتياطي الإلزامي»، فتخلص إلى أن استنفار رياض سلامة يعود إلى كونه لم يعد يملك الدولارات بالمجمل. أما ما يسميه احتياطياً إلزامياً فليس في الواقع سوى أموال مصرفية أو عينية غير مسيّلة ولا يمكن استعمالها لتمويل الاستيراد.

في المقابل، تؤكد مصادر مصرفية مطلعة أن المصرف وإن كان سيؤمّن الأموال اللازمة للاستيراد، إلا أنه لن يحصل عليها لا من الاحتياطي ولا من السوق. أولاً هو يراهن على انخفاض الاستهلاك وبالتالي الاستيراد، وثانياً سيستعمل دولارات المساعدات التي تصل إلى النازحين السوريين لتمويل استيراد المحروقات. ويوضح المصدر أن بعض المصارف التي تُرسَل إليها أموال المساعدات من البنك الدولي ومن الأمم المتحدة، عقدت اتفاقات مع الطرفين لدفع المساعدات على سعر 3900 ليرة للدولار أولاً، ولاحقاً على سعر 12 ألف ليرة. وعلى الأثر اتفق المصرف المركزي مع المصارف المعنية على الحصول على هذه الدولارات بالسعر نفسه. لا أرقام واضحة لهذه العائدات، لكن المصدر يشير إلى أن وتيرة فتح الاعتمادات ستكون مرهونة بقيمة هذه الأموال.

اللافت أن المصرف، إضافة إلى رهانه على انخفاض الاستيراد، يراهن على سحب الليرات من السوق، فإذا كان المعدل الشهري لاستيراد المحروقات يبلغ حالياً نحو ألف مليار ليرة، فقد يرتفع إلى خمسة آلاف مليار ليرة، ما يعني أن الكتلة النقدية بالليرة ستنخفض بشكل كبير، بما يؤدي تلقائياً إلى تخفيف الطلب على شراء الدولار، مقابل زيادة الطلب على الليرة. هل ينجح ذلك في تخفيض سعر الصرف كما يتوقع المصرف؟ عملياً، تشير التجربة إلى أن كل الإجراءات التي لجأ إليها مصرف لبنان لتخفيض سعر الدولار، كان لها الدور المباشر في وصول سعره إلى ما وصل إليه.

صدمة ما بعد وقف الدعم: لبنان ينطفئ

لا كهرباء. لا مازوت. لا بنزين... لا اتفاق محسوماً بعد على تشكيل حكومة قريباً. رغم المؤشرات الإيجابية. القرار «المُفاجئ» برفع الدعم عن استيراد المحروقات، شكّل صدمة للمجتمع والاقتصاد. وعجزاً عن محاولة «التكيّف» معه. فاسوأ ما في هذا القرار أنه اتُّخذ من دون تصحيح للأجور وتوفير مصادر طاقة بديلة، أو حتى بالحدّ الأدنى توزيع مساعدات نقدية وتأمين الكميات اللازمة من المحروقات. ويأتي ليؤكّد أنّ المعركة سياسية ومواجهتها لا تكون إلا بأدوات سياسية.

فرياض سلامة والمنظومة الحاكمة تعمّدا قتل السكّان في لبنان، في مقابل تعزيز الزبائنية السياسية وسلطة الكارتلات والمحتكرين وأرباحهم

لبنان أُطفئ، على وقع قرارات حاكم مصرف لبنان، رياض سلامة، المحطات لا تبيع الوقود، ولا تُشغّل المولّدات الكهربائية، ولا يُوزّع الخبز، ولا تعمل مؤسسات. هي مرحلة جديدة من الانهيار المالي والنقدي والاقتصادي - الأسوأ في العالم منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية - و«تمتاز» بأنها أكثر صعوبةً وخطورةً من كلّ ما شهده البلد في السنتين الماضيتين. في هذه المرحلة، لم تعد تنفع نظرية سلامة وبقية المسؤولين أنّ الناس «بكرا بيتعودوا» على هذا الذلّ. فالأمر ليس محصوراً بارتفاع أسعار المحروقات - المُدمّر للجزء الأكبر من الأفراد - بل بتعطيل كل حلقات الإنتاج والاقتصاد.

سياسة الأرض المحروقة يُنفذّها سلامة، بموافقة وتواطؤ مرجعيات سياسية. وهو حين أخبر المجلس المركزي لمصرف لبنان في آخر جلسةٍ له، نيّته التوقّف عن تأمين الدولارات لاستيراد المحروقات، قدّم لهم الموضوع من زاوية: «لم يعد لدينا ما يكفي من الدولارات. هل توافقون على الاستمرار في دعم الاستيراد والصرف من حساب التوظيفات الإلزامية، ومواجهة القضاء إذا ادّعى علينا نقيب المحامين وغيره، بتهمة المسّ بأموال المودعين؟». أخافهم بالملاحقة القانونية والسجن، مُتجنباً إخبارهم أنّ قراره ليس تقنياً ولا اقتصادياً ولا علاقة له بما إذا كان قد أهدر كلّ دولار في حساب التوظيفات الإلزامية - بما فيها الـ14 مليار دولار التي «لا تُمسّ» - أم لا، إنّما اتُّخذ عن قصد ويندرج أولاً وأخيراً في السياسة. القرار مُتّخذ بعدم الاستفادة من الأزمة لإعادة بناء الاقتصاد وفق أُسس صحيحة، وعدم تطبيق حلول تُخفّف من التبعات على المُجتمع.

المعركة - غير المتكافئة - مُستمرة منذ تشرين الأول 2019، اشتدت مع تطبير لجنة المال والموازنة النيابية والمصارف ومصرف لبنان لخطة «الإصلاح المالي» لحكومة حسّان دياب، وبلغت أوجها في 11 آب. إنّها معركة توزيع الخسائر والدفاع عن «مُكتسبات» مالية وسياسية. من تسبّب بالأزمة يُريد تحميلها للطبقات المعدمة والمتوسطة. كيف حصل ذلك في السنتين الماضيتين؟ تفرّغ سلامة على انهيار الليرة في صيف 2019 ولم يتدخّل لفرض الاستقرار. الطلب على الدولار من السوق من «المركزي» والمصارف بالتالي ارتفاع سعر الصرف، خلق أسعار صرف متعدّدة في مقابل الإبقاء على سعر الـ1507,5 في المعاملات المصرفية لتمكين المصارف ومصرف لبنان من إطفاء خسائرهما وتصحيح ميزانياتهما شكلياً، وتدمير القدرة الشرائية للأجور بالتزامن مع حجز أموال المودعين، وزيادة الدولرة في الاقتصاد، وتأمين البيئة السليمة للمُحتكرين حتى يحلّوا نهائياً مكان الدولة وزيادة أرباحهم غير المستحقة، وغياب المؤسسات العامة والجهات الرقابية عن تأمين مصلحة السكان. واليوم، يُريد سلامة تجفيف النقد بالليرة بين الناس، بداعي امتصاص الكتلة النقدية ولجم ارتفاع الأسعار، عبر إجبارها على الصرف من مُدخراتها بالدولار وتخفيف الاستهلاك، مُراهناً على أنّ ذلك قد يُخفّض سعر الصرف. إلا أنّ سلامة يتغاضى عن مسألتين: ارتفاع الكتلة النقدية لم يكن سبباً لانهيار الليرة ولم يتزامن مع ازدياد في السلع المعروضة والقدرات الشرائية، بل إن ارتفاع حجم النقد في التداول كانت نتيجة لانهيار سعر صرف الليرة وما لحق به من تضخّم في الأسعار. المسألة الثانية، أنّ ارتفاع أسعار المحروقات، بالتالي فاتورة المولدات والسلع والنقل، لن تؤثّر في أصحاب الثروات وذوي الدخل بالدولار، بل متوسطي الدخل والمُعدمين الذين لا يملكون عشرات آلاف الدولارات المُخزّنة في المنازل، حتى يتحمّس لـ«مُصادرتها». وبالتأكيد، تصريفها في السوق لن يُصحّح سعر الصرف، بل قرارات فعّالة من السلطة النقدية ووجود حكومة تملك سلطة تنفيذية حقيقية تبني «الدولة المُجتمعية»... ما ليس متوافراً.

> **القرار مُتّخذ بعدم تطبيق حلول تُخفّف من تبعات الانهيار**

الحلّ بالنسبة إلى الرئيس ميشال عون كان بمحاولة إعادة تفعيل حكومة حسّان دياب، فدعا أمس مجلس الوزراء إلى الانعقاد «بصورة استثنائية للضرورة القصوى بالاتفاق مع رئيس مجلس الوزراء في حكومة تصريف الأعمال حسّان دياب، في جلسة تُخصّص لمعالجة التداعيات والذيول الخطيرة لأسباب أزمة عدم توافر المشتقات النفطية على أنواعها في السوق المحلية وانقطاعها، وذلك استناداً إلى الفقرة 12 من المادة 53 من الدستور». ردّ دياب أتى متوقعاً لناحية تذكيره أنّ «الحكومة مستقيلة منذ 10 آب 2020، والتزاماً بنصّ المادة 64 من الدستور التي تحصر صلاحيات الحكومة المستقيلة بالمعنى الضيّق لتصريف الأعمال، ومنعاً لأي التباس، فإنّ رئيس حكومة تصريف الأعمال لا يزال عند موقفه المبدئي بعدم خرق الدستور، بالتالي عدم دعوة مجلس الوزراء للاجتماع».

في الملفّ الحكومي، وعلى الرغم من الانهيار الشامل المسيطر على البلد، وجد عون ورئيس الحكومة المُكلّف نجيب ميقاتي أنّه بإمكانهما ترحيل لقاءاتهما إلى الأسبوع المقبل، عوض تكثيف الاجتماعات والتوقّف عن إضاعة الوقت، والحسم: إما حكومة أو اعتذار عن التكليف. هل فعلاً هما يُريدان تأليف الحكومة، أم لا يزالان، ومن خلفهما بقية القوى السياسية، يُكابران على ما يجري في المجتمع والاقتصاد، ويبحثان عن كيفية تسجيل نقاط هامشية؟ ما يحرص الفريقان على تظهيره في العلن، هو أنّهما باتا في المرحلة الأخيرة السابقة إعلان التشكيلة الحكومية، بعد إنهاء توزيع الحقائب وإبقاء التوزيعة نفسها بالنسبة للحقائب المُصنفة سيادية. وفي المداولات السياسية الكثير من المؤشرات على أن الحكومة ستبصر النور قريباً. إلا أنّ مسؤولين معنيين بتفاصيل المشاورات الحكومية يؤكّدون أنّ «كلّ الإيجابية مُصطنعة، ولا يُمكن التعويل عليها. المعضلة هي في أنّ القوى الأساسية في التشكيل لم تتفق في ما بينها على وجهة ما بعد تأليف الحكومة».

(الأخبار)

«مُصادرة» الصهاريج تزدهر... والدولة «تضمن» نزاهة العملية!

الحكومة كانت تستطيع اتّخاذ قرار باستيراد البنزين والمازوت مباشرةً، ولكنّها لم تفعل. ضيّعت كلّ الخيارات البديلة، وحين قرّرت المبادرة قامت بالاستدانة من مصرف لبنان وبالدولار لمصلحة شركات استيراد المحروقات، لتزيد بذلك أرباح الكارتيل. وتقاعست الدولة عن تنفيذ قرار التعبئة العامة الصادر عام 2020، ويُجيز لها «فرض الرقابة على مصادر الطاقة وتنظيمها وتوزيعها»، بما يتضمّن ذلك من مُصادرة ووضع اليد على المنشآت والسلع للحفاظ على أمن البلاد. أمام الاستقالة الكاملة للسلطة السياسية من تحمّل المسؤولية، قرّر بعض الناس أخذ المُبادرة بأنفسهم والدفاع عن «أمنهم الطاقوي»، بصورة عشوائية.

يعرفون أنّ المسؤولين السياسيين ومصرف لبنان ومستوردي المحروقات والأدوية والمواد الغذائية (سابقاً) والمخابز، يكذبون عليهم حين يقولون إنّ المواد الأساسية مقطوعة. إذا كان أفرادٌ قد عمدوا خلال الأشهر الماضية إلى تخزين كميات من المازوت بهدف تأمين حاجاتهم الخاصة، تحضيراً مثلاً لفصل الشتاء، فهل من المعقول ألّا يكون التجّار المُحتكرون والموزّعون لتلك المواد، قد خزّنوا كميات ضخمة منها، تحضيراً لبيعها بأسعار مرتفعة وتحقيق أرباح طائلة، بعدَ رفع الدعم نهائياً عن الاستيراد؟ لماذا على الناس أن تقبل إذاً التقنين القاسي في التغذية الكهربائية، وتلف الماكولات، وتعطّل الأشغال ووسائل الاتصال، ومواجهة الحرّ من دون وسائل التبريد، وتوقّف ماكينات الأوكسيجين في منازل الفقراء، فيما المحروقات مؤمّنة للنافذين والسياسيين ومن يملك المال؟ كان الردّ بمصادرة صهاريج المازوت من المنشآت النفطية وشركات الاستيراد. «ظاهرة» تمدّدت في أكثر من منطقة، يقوم خلالها شبّانٌ بمصادرة المازوت واستخدامه لتشغيل المولدات في البلدات والأحياء. هؤلاء يرفضون أن يكونوا سارقين، إذ يصرّون على كونهم لا يُصادرون المازوت لبيعه أو تهريبه، بل يدفعون ثمن السلعة لسائق الصهريج. و«المُصادرون»، في مختلف المناطق، لا يُخفون هوياتهم، يعرفهم المسؤولون في وزارة الطاقة والمنشآت النفطية والجيش والقوى الأمنية. فرضوا وجودهم على «السوق»، فبات المسؤولون يعقدون معهم «اتفاقيات مرورية» لتسهيل نقل المازوت بين المناطق. وهم نجحوا، أحياناً، في تأمين المازوت لبلداتهم وأحيائهم، تحت تهديد «مُصادرة صهاريج منطقة أخرى». أما الجيش اللبناني، فيقول عاملون في القطاع النفطي إنه يلعب دور «الوسيط» بين المُصادرين وأصحاب الصهاريج، لتأمين إيصال الأموال من الجهة الأولى إلى الثانية. لكن هذا الدور لا يضمن «أمن» عملية المصادرة دوماً. ففي بعض الأحيان، يكاد بعض أصحاب الصهاريج يُشعلون «معارك طائفية» أو مناطقية، في حال صادر أبناء «طائفة أخرى» أو «منطقة أخرى» المازوت الذي اشتروه من الشركات أو من منشآت النفط.

> **مُصادرو المازوت يرفضون اعتبار ما يقومون به سرقة، إذ يدفعون الثمن لسائق الصهريج**

من ناحية أخرى، ولكن أيضاً من نتائج أزمة المحروقات وانقطاع المازوت، برز «بزنس» جديد. بعض شركات التوزيع تستأجر عناصر حماية مُسلحة لمواكبة نقل المازوت إلى المنازل والمؤسسات حيث ستُفرغ. الحالتان غير مُستغربتين في بلدٍ عَمد فيه المسؤولون منذ سنوات إلى تفكيك الدولة وتغييب دورها نهائياً، لصالح «السوق الحرّة».

(الأخبار)

قضية اليوم

الكنيسة بعد لقاء الفاتيكان: التربية والاستشفاء في خبر كان

هيام القصيفي

لم يتحرك الفاتيكان لدعوة رؤساء الكنائس المشرقية، الشرقية والغربية، إلى لقاء جامع في الأول من تموز الفائت، إلا حين وصلت إليه من المرجعية الأرمنية الأرثوذكسية الأعلى، تفاصيل الأوضاع الاقتصادية السيئة التي تترك تداعيات مباشرة على الأوضاع الاستشفائية والتربوية. ذهب بطاركة المشرق إلى روما، وعادوا وكأن شيئاً لم يكن، عدا عن رحلة الاستجمام التي اصطحب فيها البطريرك الماروني الكاردينال مار بشارة بطرس الراعي فيها المروجين لمبادراته السياسية الفاشلة واللقاءات التي سيقوم بها التي ستنقل ملف لبنان إلى العالم! لم يكن الفاتيكان ليستنفر أجهزته لمواجهة الأزمة الحالية لو لم يكن مدركاً لخطورتها وضرورة وقف انهيارها.

لكن فعلياً، ماذا حصل بعد الاجتماع الذي كان يمكن أن يشكل محطة مفصلية؟

تتلطى القوى السياسية مجتمعة خلف مسألة سلاح حزب الله من أجل عدم مقاربة حقيقية للوضع

> **كل ما فعلته الكنيسة أنها لا تزال متخلية عن أدنى واجباتها، ما عدا استعطاء المساعدات باسم الناس**

الاقتصادي المأزوم، وتقف بكركي وراء كل من ينادي بوقف إطلاق الصواريخ وتنادي بالسلام، وتتناسى كل ما عدا ذلك. فرغم أخطاء الحملة التي تعرض لها الراعي، فإن العبرة الأساسية هي أن البطريرك الماروني، ومعه الطبقة السياسية والإعلامية، يغطي من دون مواربة حاكم مصرف لبنان رياض سلامة منذ أن بدأ إجراءاته التعسفية ضد اللبنانيين، بحجة الدفاع عن المركز الماروني الأول، ومعه رئيس جمعية المصارف سليم صفير الذي يتشارك معه في كل الجرائم التي ترتكب في حق اللبنانيين. وبذلك تكون بكركي أمام مسؤولية محاسبتها تماماً كما يفترض مساءلة كل القوى السياسية الأخرى، لأن ما يفعله سلامه وشركاؤه يصيب، عدا الواقع الاجتماعي والمالي والبنية الأساسية للبنانيين في حياتهم وطعامهم، مجلس المطارنة الموارنة ومجلس البطاركة خلال الاجتماعات بالبحث في كيفية تناول القربان المقدس في أزمة كورونا، وفي إنشاء رهبانيات مصغرة وبيوت لراهبات معتزلات، ينظر الفاتيكان حالياً في إقفالها.

وعدا عن الارتفاع السابق للدولار فإن أزمة المحروقات والإنترنت والكهرباء تساوي عملياً وقف العام الدراسي الذي يفترض أن يكون بعد فترة زمنية قصيرة، مع ما يستتبعه من وقف رواتب الأساتذة. والقضية لا تتعلق بسنة أو أشهر، بل بانهيار جيل تربوي كامل، يترك أثره لسنوات إلى الأمام. فأي أطباء وأي مهندسين وأي طلاب سيتخرجون في قطاع متروك منذ أكثر من سنتين وسيكون مهملاً أكثر في شكل غير مسبوق؟ وما نفع المبادرات التي يقوم بها رجال أعمال لتمويل أقساط محتاجين، إذا كانت المدارس ستنهار الواحدة تلو الأخرى، ما عدا تلك التي تتبع مؤسسات أوروبية أو أميركية وتقوم بعملية استنفار واسعة للبقاء على قيد الحياة أكثر وقت ممكن؟ ورغم كل المشهد المأسوي لم يحصل أي تحرك كنسي فاعل وشامل، واعياً للمخاطر الحقيقية التي يتعرض لها القطاع، ووضع خطط لإنقاذه والاستفادة فعلياً من المساعدات والأجهزة في بلاد الاغتراب والكنائس في أوروبا وأميركا.

ما يتداوله ذوو الاختصاص في التربية والصحة أن هذين القطاعين لن ينهضا قبل سنوات طويلة، في ظل الأزمات المتلاحقة التي ضربتهما. فهجرة الممرضين والأطباء ليست خبراً اقتصادياً عادياً، كما يحصل في المستشفيات التي تتبع في شكل مباشر المؤسسات الكنسية. فربطاً بين هجرة الأطباء والأساتذة والممرضين الكفوئين كيف يمكن لهذا القطاع أن يوازن بين الصحة الاستشفائية وأوضاع العاملين فيه، وكيف يمكن من الآن وصاعداً الاتكاء على نظام استشفائي متين وفاعل مع الهجرة وتراجع مستوى جيل جديد خارج من كمية أزمات متلاحقة؟ إضافة إلى أن هذه المستشفيات متعاقدة مثلاً مع جهات ضامنة بعضها كنسي ويتبع لمجلس البطاركة الكاثوليك، لكن مرضى هذه الفئات أصبحوا تحت رحمة الاستشفاء بأسعار خيالية ليس بمقدورهم جميعاً تأمينها، إذا كان أبسط علاج الأمراض السرطانية يحتاج إلى ما يناهز 70 مليون ليرة، ليصبح المريض عالقاً بين المستشفى والجهة الضامنة وكلاهما يشكو ارتفاع الأسعار ولا مرجعية كنسية يحتكمون إليها وتعالج كل هذه المشكلات.

والقطاع الصحي الذي يحاول الفاتيكان المساعدة لتأمين احتياجاته، قطاع متكامل من الاستشفاء إلى الأدوية إلى طب الأسنان والعيون وكل الحاجات البديهية التي ستجعل اللبنانيين عرضة لانهيار حياتهم ونظامهم الشخصي الصحي. كل ذلك سلة متكاملة، لا يمكن أن تتهاون بها المرجعيات الدينية التي تروج في الخارج أنها تعمل عليها، في حين أن قلة من المطارنة والأساقفة معدودة تعمل حقيقة على سد الحاجات المجتمعية، لكنهم غير قادرين على مواجهة أزمة مستفحلة في قطاعات كبرى. وهو الذي كان مطلوباً من الكنيسة بعد لقاء الفاتيكان، لكن كل ما فعلته الكنيسة أنها لا تزال متخلية عن أدنى واجباتها، ما عدا استعطاء المساعدات باسم الناس. أما ما طلبه الفاتيكان فأصبح في خبر كان.

(هيثم الموسوي)

القطاعين الأساسيين اللذين ينادي الفاتيكان بضرورة العمل على رعايتهما. والمساءلة تتعلق بعدم تلبيتها ما يرغب به الكرسي الرسولي حتى بالحد الأدنى من خلال استنفار الأجهزة والمؤسسات الكنسية المعنية، بدل استمرار حفلات العشاء، كي لا يتمادى الانهيار الذي سيتحول مع إجراءات مصرف لبنان أكثر خطراً، وينعكس على أهم قطاعين أساسيين. لا تخلو أدبيات الكنيسة من التغني بالمدارس من روما إلى لبنان وكيف أطلق الموارنة حملة إنشاء المدارس منذ أن بدأوا تمركزهم في لبنان. ومنذ أكثر من سنتين والكلام الجدي في دوائر مارونية تحديداً يحذر من انهيار هذا القطاع، على وقع استشراف مسبق لارتفاع سعر الدولار. لكن أحداً في المؤسسات المارونية الفاعلة لم يعر أذناً صاغية لكل التحذيرات، فلم تعلن خطة طوارئ تربوية لمواكبة الانهيار المقبل عليه قطاع المدارس والجامعات، وتلهى أن يدفع المراجع بشيك من دون رصيد، ما يعني الدخول في متاهات قضائية ووقت لتحصيل الأموال.

علم وخبر

الرسوم الدبلوماسية... بالبطاقة الإلكترونية

أصدرت نائبة رئيس مجلس الوزراء، وزيرة الخارجية والمغتربين بالوكالة، زينة عكر التعميم رقم 24/14 تحت عنوان: «في إطار تحديث نظم العمل في الوزارة». ويتضمن القرار البدء بـ«استيفاء الرسوم القنصلية في البعثات الدبلوماسية والقنصلية بواسطة البطاقات المصرفية أو الشيكات المصرفية حصراً، على أن تتمّ إفادتنا تباعاً عن الخطوات المُتّبعة في هذا الإطار، لا سيّما منه لجهة التجهيزات المطلوبة والشروط المصرفية، على أن تُنجزَ هذه العملية خلال شهر بحدّ أقصى». هذا الخيار كان قد طُرح في «الخارجية» قبل سنوات، ولكن لم يتمّ السير به بسبب وجود العديد من العقبات أمامه: أولاً، عدم تحديد الجهة التي ستدفع رسم عمل البطاقة المصرفية أكانت البعثة أم المواطن أم المصرف. ثانياً، القرار سهل التطبيق في دول الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأميركية حيث يتم التعامل بعملات ثابتة ومستقرة نسبياً، في حين أنّ تطبيقه مُتعذِّر في البلدان التي لا تفتح حسابات مصرفية سوى بعملتها المحلية أو تُعاني من عملة غير مستقرة، ما يعني تكبّد خسارة في تحويل المبالغ. ثالثاً، وجود احتمال ابتداءً من أول آب، بدأ العمل بمفعول زيادة رواتب مدراء وموظفي مصرف لبنان. فقد اتخذ الحاكم رياض سلامة القرار بحصول كلّ مدير، وعددهم 29، على زيادة 12 مليون ليرة على الراتب. أما الموظفون، الذين تتراوح رواتبهم بين حدّ أدنى ألف دولار (مليون و500 ألف ليرة) وحدّ أقصى 5 آلاف دولار (7 ملايين و500 ألف ليرة)، فيقبضون 50 في المئة من معاشاتهم وفق سعر صرف 3900 ليرة لكلّ دولار، أما النصف الآخر فيُحوّل إلى بطاقات مصرفية تُستخدم لعمليات الشراء، ولا يحصلون عليه نقداً. وقد عبّر موظفون من أصحاب الرواتب الأدنى عن انزعاجهم من هذا القرار، لاعتبارهم أنّهم غير قادرين على التصرّف بنسبة كبيرة من النقد. وبحسب مصادر نقابة موظفي مصرف لبنان، فقد عرض سلامة على نواب الحاكم الأربعة زيادة 12 مليون ليرة على رواتبهم، إلا أنّهم «رفضوا الحصول عليها».

زيادة رواتب موظفي مصرف لبنان

تقرير

آخر بدع المصارف: لا رواتب لموظّفي المستشفيات

رأفت حمية

لا تتوانى سلطة رأس المال التي تتحكم بمصير البلاد عن اقتناص أي فرصة للاستيلاء على تعب الناس ولقمة عيشهم. وفي كل مرة، تبتكر هذه السلطة، المؤلفة من مصرف لبنان والمصارف التجارية، طريقة جديدة لحرمان الناس من أرزاقهم المودعة لديها. وفيما يتولى «المركزي» وحاكمه مهمة تركيع اللبنانيين وإذلالهم بحرمانهم من احتياجاتهم الأساسية من دواء وخبز ومحروقات وغيرها، تتولى المصارف التجارية على المقلب الآخر مهمة «تشليح» هؤلاء تعبهم وأموالهم التي كانوا قد أودعوها فيها للحفاظ عليها.

آخر البدع التي قررت المصارف اللجوء إليها توزيع «بلاغات» على معظم المستشفيات تعلمها من خلالها بأن لا رواتب لموظفيها في الحسابات المصرفية، وأنه يجب على هذه المستشفيات أن تحضر الأموال وتودعها في المصارف لتأمين الرواتب! الغرابة هنا، في تمادي المصارف في قراراتها «المستفزة»، على ما يقول أحد أصحاب المستشفيات، إذ إنها تستولي على أموال المؤسسات الاستشفائية التي تتقاضاها من وزارة الصحة والجهات والصناديق الضامنة. والسؤال هنا: لماذا لا تدفع المصارف رواتب موظفي المستشفيات من ودائع المستشفيات، وهل يعني الأمر أن الأموال «بح»؟

لم يخطر في بال أصحاب المستشفيات أن يصل جشع المصارف، بحسب نقيب أصحاب المستشفيات الخاصة سليمان هارون، إلى حد «الاستيلاء على أموالنا التي باتت الخرطوشة الأخيرة في إبقاء المستشفيات على قيد الحياة». ففي ظل الأزمة التي يمر بها القطاع الاستشفائي، يصبح التعويل على تلك الأموال أساسياً، وخصوصاً أن «90% من مقبوضات المستشفيات تأتي على شكل تحويلات أو شيكات إلى المصارف وليست أموال كاش».

وفي هذا السياق، وقبل أن تتخذ نقابة أصحاب المستشفيات أية قرارات، عملت على التواصل مع المصارف في محاولة لفهم ما يجري، إلا أن الاتصالات لم تفض إلى شيء، إذ كان الجواب الوحيد الذي تلقته الأخيرة هو أنه «ما في مصاري». وهذا ما جعل المستشفيات «في حل من أمرها»، بحسب هارون، متجهة نحو الخيار الأصعب: «إقفال أبواب المستشفيات في وجه موظفي المصارف وعائلاتهم إلا إذا كان الدفع كاش»، يقول هارون، على قاعدة أن «البادئ أظلم».

> **المستشفيات تردّ بالتضييق على موظّفي المصارف!**

وبغض النظر عن ردة الفعل التي اتخذتها نقابة المستشفيات، لناحية أنه لا يمكن الضغط على المصارف بالموظفين الذين هم في نهاية المطاف مواطنون لا ناقة لهم ولا جمل مع «أرباب عملهم»، إلا أن البعض يضع هذا الخيار في إطار المواجهة الأخيرة مع المصارف لسببين أساسيين: أولهما مباشر يتعلق «بثنيها عن استكمال القرار الذي يضرّ الموظفين كما المستشفيات لكون الأخيرة لا تملك أموالاً طازجة في ظل الأزمة الاقتصادية ـ المالية لتوفير الرواتب وهو ما سيؤثر سلباً على العمل ككل»، وثانيهما تطمح من خلاله النقابة إلى «التأمين» على أموالها المودعة خوفاً من ضياعها كما ضاعت أموال الكثير من المودعين. لكن، حتى هذه اللحظة، الحكم في يد المصارف التي لا تملك سوى جواب واحد: «ما في مصاري».

(أرشيف ـ مروان طحطح)

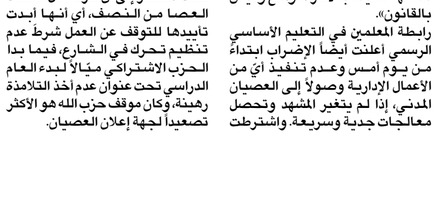

تقرير

هل تنفّذ روابط «الرسمي» قرار مقاطعة العام الدراسي؟

فاتن الحاج

ليست المرة الأولى التي تعلن فيها روابط التعليم الرسمي التوقف عن العمل وعدم الحضور إلى المدارس وإغلاق المؤسسات التربوية، احتجاجاً على الانهيار الاقتصادي، والواقع الذي وصل إليه الأستاذ، فقد سبق لهيئة التنسيق النقابية بكل مكوّناتها الحزبية أن تبنّت توصية لمجموعة من المديرين في التعليم الأساسي والثانوي ببدء «عصيان مدني»، ابتداءً من الأول من تموز الماضي من دون أن تجد «الخطوة الارتجالية» طريقها إلى التنفيذ في المدارس والثانويات. وبحجة إنجاز العام الدراسي الماضي بكل محطاته، حضر المديرون، بمن فيهم بعض المعترضين المشاركين في إعداد التوصية، لإنهاء الامتحانات النهائية وإصدار العلامات والانخراط في كل أعمال الامتحانات الرسمية من مراقبة وتصحيح وإصدار نتائج، فيما ليس معروفاً ما إذا كان بعض المديرين سينهون السنة المالية للعام الدراسي الماضي ويرفعون موازناتهم السنوية، أم سيلتزمون قرار الروابط، مع الإشارة إلى أن البعض سلّم موازناته.

رابطة أساتذة التعليم الثانوي اشترطت للعودة إلى الصفوف وبدء عام دراسي جديد أن يجري تصحيح للرواتب، وإعادة الاعتبار إلى موقع الأستاذ الثانوي ومكانته وحقوقه المالية والصحية والاجتماعية. عضو الرابطة مدير ثانوية كفرا الرسمية فؤاد إبراهيم أوضح المطلب بالقول: «إن الروابط تدرك بأن تصحيح الرواتب أمر متعذّر في هذه الفترة بسبب غياب الإيرادات، لكننا لن نعود قبل إعطاء سلفة غلاء معيشة كتمهيد لتصحيح الرواتب». لكن ماذا لو لم ينفذ التوقف عن العمل على غرار ما حصل مع توصيتكم السابقة؟ إبراهيم رأى أنه «إذا لم تكن هناك متابعة لتنفيذ القرار فستكون هناك خروق من باب المونة والمجاملات بين المديرين والوزارة، لذا دعونا المديرين إلى الانسحاب من كل المجموعات على واتساب لضمان منع كمّ الأفواه، وندعو أيضاً إلى تشكيل لجان متابعة مركزية وعلى مستوى الفروع مشتركة بين التعليمين الأساسي والثانوي لقطع الطريق أمام الحضور إلى المدارس وتمرير معاملات إدارية، ولا يجب أن يكون هناك دوام يوم الثلاثاء طيلة آب الجاري». ورفض إبراهيم «شيطنة» التحرك من باب الضغط السياسي وتوجيهه لخدمة تشكيل الحكومة، قائلاً: «لنكن واقعيين، السياسيون لا ينتظروننا فهم لم يشكلوا حكومة رغم الانهيار الكامل ورفع الدعم عن المحروقات».

وإذا كان الموقف الجديد للرابطة يتقاطع مع ما يطالب به الأساتذة الثانويون منذ وقت طويل، إلا أن البعض أبدى حذره من الخطوة، باعتبار «أننا تعوّدنا أن تكون تحركات الرابطة محكومة بحسابات سياسية، ونخاف أن يكون الهدف تسهيل تحقيق مكسب سياسي على حساب مطالبنا النقابية الصرفة»، بحسب الأستاذ في ثانوية قانا الرسمية فراس حريري. وسأل: «كيف ستتعاطى الرابطة مع تحضيرات الوزارة لعام دراسي مكوّن من 18 أسبوعاً دراسياً، لا أونلاين ولا مدمج في ظل هذه الظروف الصعبة؟». ولم يستبعد أن تكون الرابطة لعبت هذه الورقة لامتصاص غضب الأساتذة، باعتبار أن «التوقف عن العمل سيكون تحصيلاً حاصل نتيجة هذه الظروف، فلا الأستاذ ولا التلميذ سيكونان قادرين على الذهاب إلى الصفوف». أما الأستاذ في ثانوية شمسطار الرسمية، مهند سليمان، فوصف القرار بـ«المسرحية الهزلية التمويهية المقيتة

> **رغم «العصيان» أنجزت الروابط الامتحانات المدرسية والرسمية وحضّرت الموازنات**

في الوقت الضائع، لكون الرابطة نفسها لم تلتزم ببياناتها السابقة المتعلقة بالعصيان إذ أنهت العام الدراسي وشاركت في الاستحقاق الرسمي وتحضير الموازنات، علماً بأنها تفرض نفسها علينا بالأمر الواقع وليس بالقانون».

رابطة المعلمين في التعليم الأساسي الرسمي أعلنت أيضاً الإضراب ابتداءً من يوم أمس وعدم تنفيذ أيّ من الأعمال الإدارية وصولاً إلى العصيان المدني، إذا لم يتغير المشهد وتحصل معالجات جدية وسريعة. واشترطت للعودة «إقرار مشروع القانون بصرف 500 مليار ليرة لدعم التربية والمعلمين والمدارس، تأمين المحروقات بأسعار معقولة للمعلمين كي يستطيعوا الحضور إلى مدارسهم، توفير المازوت للمدارس، تحسين أوضاع الرواتب من خلال إعطاء سلفة غلاء معيشة وزيادة أجر حصة التعاقد، زيادة نسبة التغطية الصحية، تسريع إعطاء اللقاحات، تأمين بدل نقل للتلامذة والإسراع في بتّ المناقلات».

وبحسب مصادر في الرابطة، حصل في الاجتماع الذي عُقد عبر تطبيق زووم اختلاف في وجهات النظر بشأن شمول المدرسة الصفية التي تنطلق في 18 الجاري، بقرار الإضراب بما أن التعليم الأساسي سيكون القطاع الوحيد الذي سيسيّر هذه المدرسة. فمن الحاضرين من رأى أن المدرسة الصيفية يجب أن تكون مشمولة بالإضراب وبدا أن جميع الإدارات في بيروت لن تفتح أبوابها، في حين أن مديرين في الشمال والجنوب أكدوا أنهم سيبدأون بالتدريس في الموعد المحدد بعدما أنجزوا التسجيل واكتملت لديهم الأعداد، وخصوصاً أن المدرسة سمحت لأيّ أستاذ أو تلميذ يقطن قربها بالالتحاق بالدورة.

وبالنسبة إلى آراء القوى الحزبية المنضوية في الرابطة حيال الإضراب، لفتت المصادر إلى أن حركة أمل أمسكت العصا من النصف، أي أنها أبدت تأييدها للتوقف عن العمل شرط عدم تنظيم تحرك في الشارع، فيما بدا الحزب الاشتراكي ميّالاً لبدء العام الدراسي تحت عنوان عدم أخذ التلامذة رهينة، وكان موقف حزب الله هو الأكثر تصعيداً لجهة إعلان العصيان.

الأخبار
al-akhbar

■ رئيس التحرير ـ المدير المسؤول:
ابراهيم الأمين

■ نائب رئيس التحرير:
بيار أبي صعب

■ مدير التحرير:
وفيق قانصوه

■ مجلس التحرير:
حسن عليق
إيلي حنا
أمل الأندري

■ صادرة عن شركة أخبار بيروت

■ المكاتب: بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق الثامن
■ تلفاكس:
01759500
01759597
■ ص.ب 113/5963

■ الإعلانات
الوكيل الحصري
ads@al-akhbar.com
01/759500

■ التوزيع
شركة الأوائل
01 /666314ـ15 ـ
03 / 828381

■ الموقع الالكتروني
www.al-akhbar.com

■ صفحات التواصل
/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/alakhbarnews-paper

المرفأ والدّفاع عن لبنان: القيامة الثانية لـ14 آذار

أسعد أبو خليل *

تلخّصت أشياء كثيرة في السياسة اللبنانيّة في الأسبوع الماضي. تكاد تقول أن وجوهاً قد أسفرت. والسياسة في لبنان تعتمد دوماً على الحبْل والألاعيب. فالشّعارات قد تعني عكس ما يرمي هاتِفها، والمطالب قد تكونُ تغطية على مطالب أخرى غير مُعلنة. في الاستبيَنَات خاض «الحلف الثلاثي» الانتخابات تحت شعار «السيادة» فيما كان أقطاب الحلف يتمولّون من الغرب ومن إسرائيل للاستعداد للقضاء على المقاومة الفلسطينيّة بالاشتراك مع الجيش اللبناني (الوثائق الأميركيّة التي استعانَ بها المؤرّخ نيت جورج في أطروحته في جامعة رايس تظهر كم أن رئيس أركان الجيش اللبناني يومها، يوسف شميط، كان أنطوان لحد قبل تشكيل جيش لبنان الجنوبي– بدا متعطّشاً للدماء الفلسطينيّة).

البطريرك الماروني، مثلاً، كالَ المدائح على سلاح حزب الله قبل سنوات فقط كما كالَ المدائح على تدخّل الحزب في سوريا. تغيّرت قناعاته، وله الحق بتغييرها. الكل يتغيّر– لكن في اتجاهٍ واحدٍ فقط: نحو التحالف السعودي-الإماراتي-الإسرائيلي. وهناك كتّاب وصحافيّون كانوا ينتقدون أيّ جملة نقد تصدر عن أيّ كان ضد حزب الله، وكانوا في نسق الممانعة المبتذلة وحتى الثناء على شبيحة النظام السوري وهم اليوم من أتباع «بو ناصر» (تركي الشيخ) في الرياض. (ظاهرة «بو ناصر» تستحقّ الدراسة: هذا تابع للأمير محمد بن بسلمان ولأنه عضو بارز في الحاشية، ولأنه يرأس هيئة الترفيه والانتشراح فإن إعلاميّي وفناني وفنانات دبي بيروت يتملّقون له بأبشع ما يكون التملّق بصورةٍ يوميّة، فيما هو يتعامل معهم بازدراء. أي أن التبعيّة لصف الاعلاميّين والفنانيّين لا تكون للأمير، لكن لتابع في حاشية الأمير). الكلّ يتغيّر أمام ناظريْك. حزب فؤاد مخزومي لم يكن يفوّت اجتماعاً لأحزاب 8 آذار، وكان في خندق الممانعة لسنوات، كما كان ميشال سليمان وكان شارل رزق وكان غيرهم كثيرون. الكلّ يتغيّر، والكل يتغيّر بالمال لا بالحسنى. هناك طرفٌ واحد يبتاع الناس. هذا الطرف هو الطرف السعودي-الإماراتي-الغربي. ابتياع الناس يكلّف اميركا أقلّ من غيرها لأنّ لديها سيف التهديد بالعقوبات وحجز ثروات الفاسد وميرات الذرّيّة. هذه فعاليّة التلويح الأميركي بالعقوبات أمام نبيه برّي أو الصفدي أو ميقاتي (عندما كان في لقاء عين التينة). يقول قائل لكن هناك إعلام إيرانيّ التمويل. وهذا صحيح. لكن: هل أن مرتّبات إعلام إيران تكفي لجذب فردٍ من خندق إلى خندق؟ كشف جاد غصن عن حجم المرتّبات الخليجيّة عندما تلقّى عرضاً من محطة محمد بن سلمان، «الشرق»، مقابل عشرة آلاف دولار. هذه المرتّبات تسخدم اليوم لنقل أفراد من خانة مقاومة إسرائيل لخانة إسرائيل نفسها، وهذا حدث مع كثيرين نراهم في الاعلام وعلى المواقع. هذه ليست مرتّبات تعويض مقابل عمل، هذه مرتّبات شراء الولاء والطاعة المطلقة، وهناك فارق. عندما يكون مرتّب العمل في هذه الوسائل الاعلاميّة التابعة لمستبدّين مرتفعاً لهذه الدرجة (أكثر من ضعف مرتّب أستاذ جامعة مبتدئ هنا) فإنّهم لا يريدون منك عملاً مهنيّاً او صحافةً استقصائيّة. لا. هذا عكس ما يريدون. هم يدفعون هذه المرّتبات من أجل حثّك على رمي كل ما تعلّمته في الجامعة والممارسة عن مهنة الصحافة كي تصبح متمرّساً في حقل البروباغندا السياسيّة المحض. ليس هناك من صحافةٍ خليجيّة (كان هناك صحافة في الكويت قبل الاجتياح العراقي) بل هناك بروباغندا خليجيّة باتت (في الحالات السعوديّة والإماراتيّة والبحرينيّة) صهيونيّة العقيدة (والصحافة القطريّة تطبيعيّة بالخالص وجريدة النظام، «القدس العربي»، نشرت مقالة لوائل عصام يعطي فيها (لمن؟) إحداثيّات عن مواقع نقل أسلحة لحزب الله في سوريا).

ما حدث على الحدود بين لبنان وفلسطين كشف الكثير من المواقف وأزال الكثير من الحُجب. هو كشف أولاً أن حياد البطريرك لم يكن حياداً عندما أطلقه. هو بادر قبل إعلان الحياد إلى زيارة فلسطين المحتلّة في خرق فاضح لسياسة وقانون لبنان. لم تكن البطريركيّة المارونيّة يوماً تكترث لحالة مسيحيّي فلسطين لا بل هي تامرت ضدّهم، منذ الأربعينيّات. تشكّل في لبنان منذ الأربعينيّات ما يمكن تسميته بالعقيدة «الفينقيّة الصهيونيّة» (المصطلح ورد في مقالة للمؤرّخ الإسرائيلي، إلياهو الياث في مجلّة «كاثدرا» في عدد نيسان 1985). إنّ الاتفاقيّة السريّة بين البطريركيّة المارونيّة وبين «الوكالة اليهوديّة» (الأداة السياسيّة التنفيذيّة للحركة الصهيونيّة) في عام 1946 أعطى لليهود الحقّ «في الاستقلال في فلسطين وفي الهجرة إليها، مقابل الاعتراف الصهيوني بـ «الوجه المسيحي» للبنان (راجع مقالة لورا زترنغ ايزنبرغ، «الدبلوماسيّة المستميتة: الاتفاقيّة المارونيّة-الصهيونيّة لعام 1946»، في مجلّة «دراسات في الصهيونيّة» مجلّد 13، رقم 2، 1992). وتضمّنت الاتفاقيّة بنداً خاصاً للإصرار على سريّة الاتفاقية وعدم جواز نشرها (حتى الساعة، ليس هناك من نشر كامل لنص الاتفاقيّة في المراجع العبريّة). لكن الاتفاقيّة، للأمانة، تطرّقت إلى عرب فلسطين وجرى وصفهم بـ«العناصر المعادية»– معادية للطرفيْن). كما تضمّنت الاتفاقية دفوعات للصحافة اللبنانيّة لخدمة الصهيونية كما أن البطريرك عريضة أرسل في 1947 رسالة إلى جريدة «الهدى» النيويوركيّة موصياً بالاتصال بوكلاء الحركة الصهيونيّة في أميركا (كان رئيس تحرير «الهدى»– فخر الصناعة اللبنانية– صهيونيّاً مدفوعاً على ما تذكر المراجع العبريّة). بلغت خدمات البطريركيّة للحركة الصهيونيّة ذورتها في نيسان 1947 عندما تطوّع إميل إدة ومطران بيروت، أغناطيوس مبارك (أليس هناك شارع أو جادة باسمه؟) للإدلاء بشهادة سريّة لدعم الحركة الصهيونيّة أمام لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين («يونسكوب»). لم يكتفِ المطران مبارك بشهادته المناصرة للصهيونيّة بل ألحقها برسالة قارن فيها بين «تنوّر» اليهود والمسيحيّين وبين «تخلّف ورجعيّة» المسلمين العرب. وختم مبارك رسالته بالتشديد على أنّ «لبنان يطلب الحريّة لليهود في فلسطين كما يطلب حريّته واستقلاله هو». وتسرّبت رسالة مبارك إلى جريدة «الديار» في حينه مما أدّى إلى اندلاع تظاهرات واحتجاجات وشارك موارنة وغير موارنة في حملة التنديد بالمطران مبارك (راجع مقالة وليام حدّاد، «المواقف العربيّة المسيحيّة نحو الصراع العربي-الإسرائيلي» في مجلة «العالم الإسلامي»، عدد 2، 1977). وفي عام 1949و أرسل المطران مبارك مبعوثين إلى إسرائيل للاستعلام عن موقف الحكومة من انقلاب ضد الحكم كان يعدّه بيار الجميّل وإميل إده (راجع مقالة إيال زيس، «المُوارنة ولبنان ودولة إسرائيل: الاتصالات المبكرة»، «ميدل إيسترن ستديز»، أكتوبر 1995). بقي أن نذكر أن الدولة اللبنانيّة، ممثّلةً بالرؤساء الثلاث، أقامت في عام 2008 حفلة تكريم لأغناطيوس مبارك في بيروت بحضور ممثّلين عن الرؤساء الثلاث، وأشاد المطران بولس مطر بمبارك ووصفه بأنه «حبرٌ من أحبار الكنيسة» و «علم من أعلام لبنان» («المستقبل»، 8 حزيران، 2008). إنّ خلاصة ما سبق يسلب من البطريرك الراعي حقّ التعليق على السياسة الخارجيّة للبنان، خصوصاً في مسائل تتعلّق بالصراع مع إسرائيل، إلا إذا كان البطريرك في وارد فتح أرشيف البطريركيّة كي يتسنّى لنا مراجعة تاريخ العلاقة السريّة بين البطريركيّة وبين الحركة الصهيونيّة قبل وبعد قيام اسرائيل في العام 1948. ولا يحقّ أن ينحصر حق الردّ على البطريرك بمرجع ديني مثل أحمد قبلان. يجب أن يمتنع قادة السلطات الدينيّة عن التعليق عن السياسة الخارجيّة اللبنانيّة والتي يجب أن تكون خارج صلاحيّاتهم بالمطلق (كما أن مواقف رجال الدين، مثل محمد مهدي شمس الدين وعبد الأمير قبلان، كانت متوائمة مع مسار اتفاقيّة 17 أيار في السنتيْن الأولى من حكم أمين الجميّل). لا، البطريرك الماروني لم يكتفِ بإدانة حق الدفاع عن لبنان بل هو طالب الجيش اللبناني بمنع إطلاق الصواريخ من لبنان. أي أن البطريرك الماروني وضع نفسه في هرم سلطة القرار الدفاعي للبنان، وقرّر من تلقاء نفسه حماية إسرائيل. لكن من المفيد أن حياد البطريرك تكشّف عن حقيقته. لكن أين كان دعاة الدولة المدنيّة المنشودة عندما أصدر رأس الكنيسة أوامرَ من عنده لقيادة الجيش اللبناني؟ هل كانوا نياماً؟

وفي نفس السياق، تبيّن أن صفّ منظمات المجتمع المدني والثاو الثاو ليست إلّا مشروعاً متجدّداً لـ14 آذار. هؤلاء المطالبون بالحريّة وقلب النظام لا يثقون بـ«السلطة» أبداً ويريدون استبدالها، وبصلاحيات استثنائيّة، لكنّهم يثقون بهذا النظام في أمرٍ واحدٍ فقط: الدفاع عن لبنان. أي أن المحتجّين والمحتجّات لا يثقون بالنظام في شؤون التربية والصحة والقضاء والأشغال العامة والطاقة والزراعة والصناعة والمالية لكن يجدون في النظام كامل الكفاءة للدفاع عن لبنان وتسليم جوزيف عون مهمة قيادة حركة مقاومة من الجيش ضد إسرائيل من حسن نصرالله. والذي جرى على حدود فلسطين لا لبس فيه. أطلق تنظيمٌ فلسطيني ثلاث قذائف فارغةً نحو فلسطين. وإطلاق الصواريخ العشوائي مضرّ بحركة مقاومةٍ منظمّة لكن المخيّمات الفلسطينيّة تعرّضت عبر السنوات لاختراقات خطيرةٍ خصوصاً من ممثّل النظام الإماراتي الصهيوني، محمد دحلان. وإطلاق القذائف والصواريخ عشوائيّاً نحو فلسطين كان من سمة حركات الثلاث، أقامت في عام 2008 حفلة تكريم لأغناطيوس مبارك في بيروت بحضور ممثّلين عن الرؤساء الثلاث، وأشاد المطران بولس مطر بمبارك ووصفه بأنه «حبرٌ من أحبار الكنيسة» و «علم من أعلام لبنان» («المستقبل»، 8 حزيران، 2008). إنّ خلاصة ما سبق يسلب من البطريرك الراعي حقّ التعليق على السياسة الخارجيّة للبنان، خصوصاً في مسائل تتعلّق بالصراع مع إسرائيل، إلا إذا كان البطريرك في وارد فتح أرشيف البطريركيّة كي يتسنّى لنا مراجعة تاريخ العلاقة السريّة بين البطريركيّة وبين الحركة الصهيونيّة قبل وبعد قيام اسرائيل في العام 1948. ولا يحقّ أن ينحصر حق الردّ على البطريرك بمرجع ديني مثل أحمد قبلان. يجب أن يمتنع قادة السلطات الدينيّة عن التعليق عن السياسة الخارجيّة اللبنانيّة والتي يجب أن تكون خارج صلاحيّاتهم بالمطلق (كما أن مواقف رجال الدين، مثل محمد مهدي شمس الدين وعبد الأمير قبلان، كانت متوائمة مع مسار اتفاقيّة 17 أيار في السنتيْن الأولى من حكم أمين الجميّل). لا، البطريرك الماروني لم يكتفِ بإدانة حق الدفاع عن لبنان بل هو طالب الجيش اللبناني بمنع إطلاق الصواريخ من لبنان. أي أن البطريرك الماروني وضع نفسه في هرم سلطة القرار الدفاعي للبنان، وقرّر من تلقاء نفسه حماية إسرائيل. لكن من

> الردّ على قرارات بيطار لا يكون بالاستجارة بالمجلس النيابي الفاسد الذي فقد شرعيّته بعد الانهيار الكبير، وبعد عجزه عن التعامل مع أسباب هذا الانهيار

المفيد أن حياد البطريرك تكشّف عن حقيقته. لكن أين كان دعاة الدولة المدنيّة المنشودة عندما أصدر رأس الكنيسة أوامرَ من عنده لقيادة الجيش اللبناني؟ هل كانوا نياماً؟

وفي نفس السياق، تبيّن أن صفّ منظمات المجتمع المدني والثاو الثاو ليست إلّا مشروعاً متجدّداً لـ14 آذار. هؤلاء المطالبون بالحريّة وقلب النظام لا يثقون بـ«السلطة» أبداً ويريدون استبدالها، وبصلاحيات استثنائيّة، لكنّهم يثقون بهذا النظام في أمرٍ واحدٍ فقط: الدفاع عن لبنان. أي أن المحتجّين والمحتجّات لا يثقون بالنظام في شؤون التربية والصحة والقضاء والأشغال العامة والطاقة والزراعة والصناعة والمالية لكن يجدون في النظام كامل الكفاءة للدفاع عن لبنان وتسليم جوزيف عون مهمة قيادة حركة مقاومة من الجيش ضد إسرائيل من حسن نصرالله. والذي جرى على حدود فلسطين لا لبس فيه. أطلق تنظيمٌ فلسطيني ثلاث قذائف فارغةً نحو فلسطين. وإطلاق الصواريخ العشوائي مضرّ بحركة مقاومةٍ منظمّة لكن المخيّمات الفلسطينيّة تعرّضت عبر السنوات لاختراقات خطيرةٍ خصوصاً من ممثّل النظام الإماراتي الصهيوني، محمد دحلان. وإطلاق القذائف والصواريخ عشوائيّاً نحو فلسطين كان من سمة حركات المقاومة الفلسطينيّة قبل 1982، وهي من دلائل فشلها وتقصيرها وعجزها. لم يكن هناك خطة موحّدة للدفاع (أو للهجوم) بل كان هناك إطلاقٌ مزاجي وعشوائي وموسمي ولو تسبب ذلك باجتياحات لم تكن المقاومة الفلسطينيّة أو الحركة الوطنيّة في وارد مواجهتها وفق خطة دفاع محكمة (من يضع هذه الخطة في الحركة الوطنيّة؟ وليد جنبلاط وتوفيق سلطان؟)

لكن حركة المقاومة قبل عام 2000 وبعدها أصبحت مدرسة في الحسابات الدقيقة والتبصّر، خلافاً لكلّ تجارب المقاومة في السابق. وحبس الانفعاليّة وقراءة العدوّ هي من عوامل نجاح المقاومة الحالية. لكن العدوّ المتربّص– والمُقيّد بحكم نجاح المقاومة في تشكيل أوّل حالة ردع مع العدوّ منذ عام 1948–أراد أن يختبر، مستفيداً من بيئةٍ سياسيّة فاسدة ومشتراة من قبل التحالف السعودي-الإسرائيلي-الغربي-الإماراتي. قرّر العدوّ أن يقصف لبنان بطائراتٍ مقاتلة وأمطر أرض لبنان بأكثر من 90 قذيفة. المُلفت كان يومها كم أن النخبة المثقّفة غضّت النظر على عدوان إسرائيل، فيما كان جوزيف عون يمارس استراتيجيته المعروفة: أي «يتابع الموضوع مع قوات اليونيفيل». وبات لمديريّة التوجيه في الجيش لازمةٌ حول أن قيادة الجيش ترى أنّ كلّ عدوان لإسرائيل– في البرّ والبحر والجوّ– لا يستحقّ غير «المتابعة» مع قوات الـ«يونيفيل». وكان يمكن أن يكون الأمر مجرّد هزر لولا أن قائد الجيش لا ينفكّ عن التكرار أن جيش لبنان على أتمّ «الجهوزيّة» (كلمة المفضّلة والمستوردة من الراعي الأميركي) لمواجهة أي عدوان. أي أن الجهوزيّة ليست إلا متابعة للموضوع مع قيادة الـ«يونيفيل»، بالإضافة إلى ملاحقة شوالات البطاطا وأكياس مسحوق الغسيل، «برسيل»، والذي أثبت جوزيف عون أنّه أهلٌ لمواجهتها. وإذا كان الجيش لم يكترث لعدوان جوّي من قبل إسرائيل فما بالك بقوى المجتمع المدني والثاو الثاو؟ هؤلاء يتحرّكون ويشعلون المواقع بمجرّد أن تطلع محطة محمد بن سلمان، «العربيّة»، بتشويه مقصودٍ لأي تصريح إيراني ويعتبرون ذلك انتقاصاً من سيادة لبنان. كل هؤلاء صمتوا وآسامة سعد قرّر أن العدوان من العدوّ أمرٌ متوّقع (أي فليغيّر الموضوع) وانصرف للحديث عن الثورة الكبرى التي بات من عمادها مع قيادات ثوريّة أخرى، مثل بولا يعقوبيان ولوسيان أبو رجيلي وسامي الجميّل. ومنظمات المجتمع المدني لم تجدْ أنّ قصفاً جويّاً إسرائيلياً يستحقّ الردّ أو الإدانة أو التصريح.

المجتمع المدني والثاو الثاو ليس إلا تجليّاً جديداً لـ14 آذار. كانت بعض شخصيات هذا المجتمع وبعض أفراد وقيادات الثاو الثاو على هامش 14 آذار، لا بل على يمينه. هؤلاء (مثل موقع ميغا سركيس نعّوم، الذي هو بلباس تقدميّ على يمين 14 آذار لأنّه وإن تطابقتْ مواقفه مع 14 آذار– من حيث نسيان كل القمع في الدول العربية والتركيز فقط على سوريا وإيران– فإنه يعيب على 14 آذار أنها تراخت مع سلاح المقاومة التي يريد هو وسامي الجميل تجريدها من سلاحها.

(هيثم الموسوي)

(الموقع اعتمد على خبرية سركيس نعّوم أن القاضي بيطار وجد قطّاً مذبوحاً، أو دجاجة محشيّة، لا أذكر، أمام منزله في رسالة تخويف).

الحزب قرّر الردّ بـ20 قذيفةٍ فقط (من لاحظ أن نظام القبة الحديدية لم يُسقط إلّا النصف، بحسب مزاعم العدوّ. لكن ليس هناك من معجب بنظام القبة الحديدية أكثر من وسائل إعلام الخليج التي تردّد مزاعم العدوّ عن نجاحاتها بالرغم من انكشاف أكاذيب ومزاعم العدوّ في أكثر من دراسة أميركيّة). عشرون قذيفة استدعت ردوداً من صف 14 آذار والإعلام الجديد من دون أن يكون هؤلاء قد علّقوا أو استنكروا قصفاً جويّاً إسرائيلياً لجنوب لبنان. لكن المسألة عنصريّة ووظائفيّة: عندما يعلن موقع ميغا سركيس نعوم استنكاره ليس فقط للعشرين قذيفة بل أيضاً لـ«ضحكة نصرالله الصفراء» تعلم أن هؤلاء لا يعتبرون أن الجنوب ينتمي إلى الوطن. ما يزعج إسرائيل يزعج هؤلاء. لا يعتبرون أن أهل الجنوب منهم. هؤلاء عبّر عن مواقفهم بصراحة كلّيّة أمثال بيار الجميّل وجبران تويني وديميانوس قطّار الذي وصف هؤلاء بأنهم «لا يشبهوننا». هؤلاء الجنوبيّون عبءٌ على الوطن الذي يريدون ترحيل طائفةٍ بأكملها عنه، على أن يبقى منها فقط هؤلاء الذين يتبعون شيوخ وأمراء التحالف السعودي-الإماراتي. والشيعة الذين يعملون في إعلام دبيّ يتطرّقون في ذمّ الشيعة أكثر من غير الشيعة في فريق 14 آذار المتجدّد. هؤلاء يريدون أن تأخذ إسرائيل راحتها في قصف الجنوب على أن تحيّد باقي مناطق لبنان (هذه كانت نصائح بطرس حرب والياس المرّ وغيرهم من 14 آذار في حرب تموز حسب تسريبات «ويكليكس»). فجأة، زالت كل الخلافات بين القوى السياسية– التقليديّة والثاو الثاويّة– وتجمّعت عند نقطتيْن: 1) السكوت عن القصف الجوي الإسرائيلي لجنوب لبنان. 2) الإدانة الشديدة للردّ المنخفض المستوى للحزب وتحميل الحزب المسؤوليّة عن صواريخه وعن صواريخ إسرائيل معاً. هذا تماماً كان مسلك بيار الجميّل عندما قاد لبنان نحو الحرب الأهليّة في 1975. هؤلاء على خطى بيار الجميّل وكميل شمعون مع أن موازين القوى ليست في صالح حديث مناصرة إسرائيل. تكشّف هذا الأسبوع أن كل من يستهل موقفه من إسرائيل بعبارة «إسرائيل عدوّ» لم يكن يعني إلّا أن عدوّه هو الذي يقاوم إسرائيل. لم تكن عبارة إسرائيل عدوّ إلّا استهلالاً للتعبير عن مواقف في صالح إسرائيل. هذه هي لغة 14 آذار التي تلقّفها الثاو الثاو (ألا يضحك هؤلاء من أنفسهم عندما يشيرون إلى أنفسهم بـ«الثوار» وعدد منهم مقيم في إعلام حاشية المستبدّين في دبي أو الرياض أو الدوحة؟)

أما في قضيّة المرفأ، فهنا يبرز الانفصام الهائل بين موقف المقاومة البارع في ردع العدوّ وصدّه وبين موقف حزب الله السياسي الداخلي. لقد وقع الحزب في فخّ أعدائه مرّتين في العقديْن الماضييْن: 1) المرة الأولى عندما قرّر فيلتمان وتيري رود لارسن (لم تغطّ الصحافة العربيّة خبر فضيحة علاقته مع مغتصب الأطفال، جيفري ابستين) استدراج الحزب إلى المشاركة في الحكومة كي يتلوّث بوصمة السلطة والنّظام الفاسد بعد أن كان في منأى حكيم عنهما. 2) المرة الثانية عندما نجحت قوى الثاو الثاو وحلفاء أميركا والخليج في استفزاز الحزب وجعله المناصر الأبرز والأقوى للنظام الفاسد بعد الانهيار المالي. أصبحت علاقة الحزب مع نبيه برّي أهم من حفاظ الحزب على سمعته ومصداقيّته. موضوع المرفأ كان آخر مثال. كيف يمكن الدفاع عن مبدأ رفع الحصانات عن نواب ووزراء مشتبه في تورّطهم من ناحية التقصير والإهمال؟ هل هناك سبب يتعلّق بالمقاومة في دفاع الحزب القوي عن هؤلاء الوزراء؟ يصبح الموضوع أقرب إلى المناصرة الطائفيّة (أو السياسيّة في حالة وزير «المردة»). ونقد القاضي بيطار ضروري وأصبح ضرورياً أكثر بعد أن تعالت أصوات في قيادات المجتمع المدني تطالب الناس بالامتناع عن نقده. أصبح القاضي بيطار تماماً مثل «المقامات» التي يُمنع الشعب من انتقادها. أي أن المجتمع المدني أضاف إلى قائمة مقاماتنا الرفيعة مقاماً جديداً يُمنع نقده. لكن: القاضي بيطار قرّر من دون تفسير استثناء قائد الجيش ومدير مخابراته من المحاسبة: ولأن الاثنيْن محسوبان على الحكومة الأميركيّة أكثر مما هما محسوبان على أي طرف سياسي (انتهت علاقة جوزيف عون بالتيار الوطني الحرّ قبل سنوات بالرغم من أنّه كان مرشّحهم لقيادة الجيش) فإن التعامل الاستثنائي مع قلب بيطار معهما يطرح أسئلة، مثل قراره باستدعاء حسان دياب وحده من بين رؤساء الحكومات الذين تعاقبوا. لكن: إن الردّ على قرارات بيطار لا يكون بالاستجارة بالمجلس النيابي الفاسد. هذا مجلس فقد شرعيّته بعد الانهيار الكبير وبعد عجز المجلس عن التعامل مع أسباب هذا الانهيار. من يمكن أن يثق بقدرة هذا المجلس على محاسبة من أي نوع، خصوصاً ضد أفراد محسوبين على كتل وازنة فيه؟ هذه من المستحيلات. صحيح، إن المبالغة في الثقة في القاضي بيطار تتناقض مع كل شعارات فساد النظام وفساد القضاء. القاضي بيطار أتى من ضمن النظام وبتزكية من أزلام النظام. إن الحزب يقف اليوم بتراصٍ وصرامة شديدة إلى جانب رئيس المجلس، لا بل هو يؤلّبه في كل القضايا الداخليّة، وحتى في ملف المفاوضات مع العدوّ– عندما قرأ برّي بياناً مُعدّاً في وزارة الخارجيّة الأميركيّة وأشار إلى «حكومة إسرائيل»، وهذه صيغة تتناقض مع أدبيّات الحزب ومع أدبيّات حركة «أمل». لم يعترض الحزب يومها. يستطيع الحزب أن يعترض على استهدافه من قبل أفرقاء المجتمع المدني. وصيغة «كلهم يعني كلهم» من عام 2015 كانت تستهدف الحزب، وتريد أن تُقحم نصرالله في صف زعماء الفساد. لكن الصيغة تغيّرت وأصبح الزعماء الستّة هم الهدف. لكن مهلاً، تغيّرت الصيغة قبل أيام إذ إن «تحالف وطني» اعتبر أن المصيبة تكمن في أربع زعماء فقط: ميشال عون ونبيه برّي وحسان دياب (زعيم؟) وحسن نصرالله. وقد تتطوّر الصيغة ليصبح شعار «كلهم يعني كلهم» «كلهم يعني نصرالله فقط». اليوم ليس ببعيد، إذا كان سلوك الردّ على ردّ عدوان إسرائيل هو المؤشّر.

إن المفارقة الكبرى في الحياة السياسية اللبنانية اليوم أن النظام اللبناني الفاسد هو حصان طروادة للتحالف السعودي-الأميركي-الاسرائيلي-الإماراتي والحزب الذي يقود المواجهة العالمية ضد الصهيونيّة يصرّ على الاستماتة في الدفاع عن هذا النظام وعن فاسديه، وهو الأقلّ استثماراً فيه وفي فساده.

* كاتب عربي ـ حسابه على تويتر
@asadabukhalil

ثورتان وفرز عاجل!

«... لنقلْ إنّ الحبّ في القلب...
أين إذاً إنّ الاحتقار؟
إن احتقاري للذي يحصل يكفي لتجفيف كلّ البحار»

«...محمد العبد الله، «بعد قليل من الحبّ»

سعد الله مزرعاني *

قد يتبادر من خلال العنوان أن ترسُّخ قدرة منظومة السلطة في القبض على مصائر لبنان وشعبه (وما قاد إليه ذلك من أزمة كوارث مدمّرة متواصلة)، يحتاج إلى ثورتين، على الأقل، وليس إلى ثورة واحدة فقط. هذا صحيح، مبدئياً، بشكل مطلق. غير أن المقصود هنا الإشارة الى ما يشهده الوضع اللبناني، حيال تلك الأزمة، من بروز ثورتين متداخلتين بمضمون وبأهداف مختلفة إزاء عملية التغيير المنشودة لإيجاد حلّ لتلك الأزمة الطاحنة التي سببها نظام البورجوازية الكبرى، بواسطة أداته وهي سلطة منظومة التحاصص الطائفي، ومن خلال الفساد والنهب والهدر والإفلات من المحاسبة والتبعية...

طاولت الأزمة بأتونها الملتهب، وعبر مآسٍ وخسائر كوارثية، الأكثرية العظمى من اللبنانيين. هي سحقت الطبقات الفقيرة. أبادت، تقريباً، الطبقة الوسطى، بكامل درجاتها. حتى فئة الـ 1 في المئة من أصحاب الملايين والمليارات ممن جنوا ثرواتهم بالسرقة والنهب، تأثرت سلبياً، بما طرأ على رخائها، من عدم الاستقرار والتوترات الأمنية والاجتماعية ومن سوء الظن من قبل الناس بها مقروناً بالشتائم دائماً، وبالمطاردة أحياناً.... ما حال دون قدرتها، نسبياً، على التمتع بثرواتها (على صعيد المظاهر والوجاهة والبهورة والفشط...).

في امتداد ذلك، كان تحرك قسم واسع من ملايين المتضررين أمراً طبيعياً (والعكس غير طبيعي!). وقد بدت حركة الاحتجاج واعدة في البدايات. هي جذبت لفترة، مئات الآلاف في العاصمة والمناطق. لكن، منذ البدايات أيضاً، تبين أن ثمة قوى مؤثرة خارجية وداخلية تدير، بالتداخل مع حركة الاحتجاج العفوية والطبيعية، وبمحاولة استخدامها بشكل تصاعدي، حراكاً آخر يحمل أجندة سياسية داخلية وإقليمية مترابطة، ما لبثت أن تبلورت تباعاً، وبشكل مباشر، لتبلغ مستوى بارزاً وحاداً ومؤثراً في المرحلة الراهنة. تبين، فعلياً، لكل متابع أن في ساحة الاحتجاج ثورتين: الأولى شعبية: داخلية بالدرجة الأولى، حرّضتها الخسائر المخيفة التي أصابت الأكثرية الساحقة من اللبنانيين ودفعت ولا تزال المزيد منهم إلى درجة الفقر والعوز والجوع والقلق والقهر ومخاطر هائلة في حقول الصحة والبيئة والتعليم والخدمات والأمن....

بيد أن ثوار هذه الفئة افتقروا، إلى أبسط عناصر وشروط النجاح في تحركهم: البرنامج والأولويات والخطة والقيادة! ليس الأمر على هذا النحو في "الثورة" الأخرى التي كانت تتقدم فيما تتراجع الأولى، وعلى حسابها بالتأكيد. والواقع أن عمومية الشعارات (ومنها "كلن يعني كلن")، وكذلك غياب البرنامج والأولويات والقيادة، كانت أمراً مقصوداً لكي تُخلي "الثورة الشعبية" (الأولى) بشعاراتها العامة ومطالبها الاقتصادية والاجتماعية والإدارية... المكان "للثورة الثانية"، بشعاراتها السياسية المباشرة وبقيادتها التي كان السفراء (السفيرات!) أبرز نجومها، وبأولوياتها التي ما لبثت أن تبلورت في شعار "الحياد الناشط" الذي أطلقه البطرك الراعي. و"الحياد" هذا، وهو، في الحقيقة، الاسم الحركي للتطبيع مع العدو بعد إنهاء المقاومة وسحب سلاحها ومحاكمتها بالمسؤولية عن أزمة الانهيار الجهنمية التي يعاني من أهوالها ملايين اللبنانيين!

لا اسم آخر للثورة الثانية سوى "الثورة المضادة". وهي النموذج اللبناني لما انتهت إليه ثورة الشعب السوداني المغدورة، والتي سقطت قيادتها العسكرية، عن سابق تحضير وتدبير، في أحضان واشنطن وتل أبيب، وكان قرارها الأول: التطبيع مع العدو الصهيوني!!!

كان في خطة قوى "الثورة المضادة" تلك (الخارجية خصوصاً والداخلية الملتحقة بها)، قبل تفجُّر الأزمة وأثناءها، تعميق تلك الأزمة إلى الحد الأقصى والأقسى، وبالتالي، دفع المعاناة الشعبية إلى درجة لا تُطاق. وهي، لهذا الغرض، جاهرت بحصار لبنان وبمنع كل أنواع المساعدات عنه. وهي، بالمقابل، أغدقت الدعم، بسخاء كبير، على منظمات، غالبها مستحدث، ومعظمها بات يعمل ضمن الأجندة الأميركية والغربية، وبتمويل وتوجيه مباشر منها. أما إدارة التعقيد والتصعيد والانهيار والنهب المالي والنقدي، فقد تولاها رجل واشنطن الأول في الإدارة اللبنانية: رياض سلامة الذي أُغدقت عليه الألقاب ورُسمت من حوله الخطوط الحمراء. بذلك، وبتواطؤ أرباب النهب والصفقات، الرسميين، استمر أميناً على تنفيذ الخطة الأميركية: منذ البدايات (في تأسيس النموذج الاقتصادي)، إلى النهايات، في إدارة الانهيار وقطع الطريق على الخيارات البديلة عبر التهديد بالانهيار الشامل للطبقة البورجوازية الحاكمة نفسها التي كان منظماً لنهبها وشاهداً على ارتكاباتها، والتي أدمنت التبعية والالتحاق وخيانة المصالح الوطنية... تغذية الأزمة وتصعيدها، ومنع الحلول، ولو الترقيعية، هي من صنع واشنطن وحلفائها الغربيين والإقليميين. المستفيد الأول هو العدو الصهيوني. ذلك هو ملخص أهداف الثورة المضادة في لبنان.

استفاد مهندسو الثورة المضادة من أخطاء السلطة القائمة (الأكثرية خصوصاً) بسبب الجشع والغثاوة والقصور. استفادوا أيضاً من عجز قوى التغيير القديمة عن التشكُّل في مشروع وطني شامل للتغيير يوجهه برنامج ذو أولويات وقيادة موحَّدة وخطة.

قوى الثورة المضادة تضع اللبنانيين أمام خيارين أحلاهما كارثي: الاستمرار في الموت والخراب والجوع وكل المخاطر... أو الخضوع للمشروع التآمري الذي يستهدف الإنجاز الأكبر للشعب اللبناني في المقاومة والتحرير، بعد إخضاع اللبنانيين وإغراقهم في الصراعات والفوضى والضياع و... فضلاً عن الإفلاس والإفقار والتجويع وكل أنواع الخراب والفوضى والتفتيت.

من هنا يبدأ التحليل، ومن هنا يبدأ الاستنتاج. أول كل ذلك، بالضرورة، المباشرة بإجراء عملية فرزٍ عاجل ومصيري، لمنع قوى الثورة المضادة من مواصلة التضليل والخداع حول دورها وأهدافها. سيشكل ذلك صحوة وعيٍ وكفاح، ولو تأخرت، تضع التيار الوطني في موقعه الطبيعي والصحيح من الصراع: مبادراً وموحّداً وفاعلاً.

* كاتب وسياسي لبناني

تونس

انقلاب «النهضة»: اعتراف... فتنازل... فتصحيح

تبدّل خطاب حركة «النهضة» بصورة لم تكن متوقّعة، إلى درجة أنها وضعت نفسها في تصرُّف الرئيس التونسي، قيس سعيد، الذي وصفت قراراته الأخيرة، بـ«الحل للأزمة سياسية مغلقة»، مبديةً، في الوقت نفسه، استعدادها للتخلّي عن السلطة متى استدعت الحاجة. تحوُّل بأتت «النهضة» تتبنّى آراءه سردية سعيد التي تحكي عن «تصحيح المسار وملاحقة الفاسدين»، متعهّدة على لسان رئيسها، راشد الغنوشي، بالمساهمة «في إعداد البلاد لانتخابات مبكرة». ويعني هذا التحوّل إدراك الحركة لحجم الأزمة التي تمرّ بها البلاد من جهة، وأزمتها الداخلية من جهة ثانية، والتي باتت تهدّد بانفراط عقد الحزب

تونس ــ أمينة الزياني

ألقت أحداث الـ 25 من تموز الماضي بثقلها على حركة «النهضة»، ودفعتها إلى الرجوع خطوات إلى الوراء واللجوء إلى استراتيجية مغايرة، وإن لم تكن جديدة، قضت بإعلان قبولها «مغادرة السلطة»، والتخلّي عنها طالما استدعى الظرف تنحّيها. وأبعد من ذلك، أعلنت «النهضة» استعدادها لإجراء نقد ذاتي ومراجعات عميقة، داخلياً، وعلى مستوى علاقتها بالوضع السياسي. إعلانٌ تمظهرت بوادره في البيان الصادر عن رئيس الحركة، راشد الغنوشي، الذي وصف فيه إجراءات الرئيس قيس سعيد بـ«الحلّ لأزمة سياسية مغلقة»، معتبراً أن بعضاً منها فقط «ذهب إلى حدّ الخرق الجسيم للدستور». وعلاوة على تغيُّر لهجة خطاب الحزب، فإن البيان الذي لم ينفِ مسؤولية الحركة عمّا آلت إليه الأزمتان السياسية والدستورية، وضع «النهضة» نفسها في تصرُّف الرئاسة في أيّ حلول تراها مناسبة. وجاء في البيان أن «حركة النهضة لن تتأخّر في دعم أيّ توجهات تحترم الدستور وفيها مصلحة عامة، وستعمل على إنجاحها. وفي مقدم ذلك، الحرص على إنفاذ القانون على الجميع دون استثناء وملاحقة الفاسدين مهما كانت مواقعهم وإنجاز الإصلاحات الاقتصادية والسياسية التي تحتاج إليها البلاد».

بذلك، يتبنّى الحزب سردية سعيد المتعلّقة بـ«تصحيح المسار، وبملاحقة الفساد»، فضلاً عن أن من شأن العناوين المرفوعة أن تخفّف عن كاهل «النهضة» مسؤولية عرقلة أيّ إصلاحات يبادر إليها الرئيس التونسي. وحتى الغنوشي الذي طاولته انتقادات حول سوء إدارته للبرلمان والتسبُّب في أزمات متواصلة، تعهّد بدوره، في حال استئناف هذه المؤسّسة لعملها، بالمساهمة «في إعداد البلاد لانتخابات مبكرة»، ما يعني قبوله بتمرير تنقيحات القانون الانتخابي، وربّما المصادقة على مبادرات سعيد المتعلّقة بالاستفتاء على تعديل الدستور. وفي خضمّ التغييرات الجارية، أعلن، في البيان نفسه، تأسيس لجنة سياسية برئاسة القيادي في «النهضة»، محمد القوماني، مهمّتها التفاوض حول الحلول السياسية حصراً. ويحمل اختيار القوماني دلالات عدّة، لكون هذا الأخير ليس مؤسّساً في الحركة، وإنّما قادم من «الحزب الديموقراطي التقدّمي»، وكان في شبابه من روّاد «اليسار الإسلامي». بالإضافة إلى ما تقدّم، فإن القوماني يُعدّ من الوجوه التي حافظت على مسافة «ودّ» مع بقية الأطراف السياسيين، ومن بينهم سعيد. وإذ تعلم «النهضة»، جيداً، أن إعلانها التقاط الرسالة الشعبية الغاضبة منها «جرّاء غياب أيّ منجزات تنموية» طوال فترة وجودها في الحكم، غير كافية لتهدئة الغضب الشعبي، ولا حتى الاحتقان داخل الحزب نفسه، فإن بيانها كان مثقلاً بالرسائل الموجّهة إلى الطرفين، والتي تصبّ جميعها في خانة «الانحناء حتى تمرّ العاصفة» بأقلّ الخسائر الممكنة.

> افتتحت «النهضة» بيانها بإبداء تفهّمها للغضب التونسي الناتج من عدم تلبية المطالب الاقتصادية والاجتماعية

وافتتحت «النهضة» بيانها بإبداء تفهّمها للغضب التونسي الناتج من عدم تلبية المطالب الاقتصادية والاجتماعية، وهو اعتراف كان صعباً على الحزب الصدحُ به، إذ طالما تحصّن بأنه «لم يحكم»، وبأن شركاءه هم المسؤولون عن تعطيل الإنجازات الاقتصادية والاجتماعية. وذهبت «النهضة» إلى حدّ الإفصاح عن قبولها مغادرة السلطة، كما فعلت سنة 2014 إبّان الحوار الوطني الذي أعقب الاغتيالات السياسية في البلاد. آنذاك، لم يكن قرار التنحّي عن السلطة بالنسبة إلى هذا الحزب أمراً هيّناً، بل تطلّب أن تغرق البلاد في أزمة اقتصادية وسياسية متعلّقة أساساً بصياغة الدستور. وأورد بيان الحركة الصادر أوّل من أمس، أن «النهضة ستولي أهمية أكبر للإعداد لمؤتمرها الوطني الـ 11 الذي نحرص على أن يكون قريباً، من أجل مراجعات عميقة في الخيارات والتموقع والهيكلة والتجديد الجذري»، على أن يُدخل الغنوشي، وفق البيان، «تحويرات على الهياكل القيادية بما يناسب ما استخلصه من رسائل الغاضبين ومقتضيات المرحلة الجديدة. ويجدّد التزامه باحترام النظام الأساسي للحزب الذي حدّد الرئاسة بدورتين». وتُعدّ هذه الفقرة إعلاناً عن تحوّل تام في تعاطي الغنوشي ومن يحيط به مع الخلافات التي جدّت منذ المؤتمر الماضي للحزب (2016) وتصاعدت حدّتها خلال السنة الماضية، ومحاولةً للملمة شتاته قبل أن ينفرط عقده تماماً.

وقبيل الانتخابات التشريعية سنة 2019، أجرت الحركة مؤتمرات جهوية أفرزت قوائم مترشحة للانتخابات، تمّت تزكيتها من الناخبين المحليين. ووسط التهليل للديموقراطية الداخلية التي سُوّقت آنذاك على أنها ممارسة فعلية يمارسها أبناء الحركة باختيارهم لمشروع ممثليهم في البرلمان، انقلب الغنوشي على هذه الديموقراطية قبل أيام من تقديم الترشيحات رسمياً لهيئة الانتخابات، واختار تغيير القوائم والأسماء أفقياً ومحلياً. وإذ سجّل بذلك هدفاً ضدّ المختلفين معه في الرأي داخل «النهضة»، نفسها، عبّر استبدال الأسماء المختارة محلياً بأفراد من حاشيته التي لا تعارضه ولا يمكن أن تشكّل خطراً عليه مستقبلاً، فإنه سجّل بنفسه هدفاً آخر في مرماه بعدما تعاظم حجم منتقديه في الداخل وخرجت بذلك الخلافات التي طالما أخمدتها الجماعة. وواصل رئيس الحزب نهج انتقاء قيادات الصفّ الأول ممّن يتحمّلون المسؤوليات، فكان في ديوانه في البرلمان وفي رئاسة الكتلة النيابية والمكتب التنفيذي مَن يدينون بالإخلاص التام له. ولم تستسغ «مجموعة المئة» (مئة قيادي، أغلبهم من المؤسسين وممّن ذاقوا معاناة التضييق والسجون زمَنَ زين العابدين بن علي) تشكيل الحاشية المطيعة، وعندما فشلت في حلّ الخلاف داخلياً، ولا سيما بعد تسويق «البطانة» لإمكانية إرجاء مؤتمر الحركة إلى أجل غير مسمّى، اتّجهت بدورها إلى وسائل الإعلام في رسالتين شهيرتين (في مخالفة ترقى إلى المحرّمات)، ندّدت الأولى، الصادرة في أيلول الماضي، بالطغمة المحيطة بالغنوشي وبرغبات هذا الأخير في السير بالحزب نحو احتكار رئاسته والاستخفاف بالمؤسسات التقريرية فيه على غرار مجلس الشورى. وأشارت إلى تراجع شعبية الحزب بعد ترؤُّس الغنوشي للبرلمان، وهو خطأ وجَب تداركه بما يحفظ قيمة الرئيس المؤسّس وشعبية الحزب في آن واحد. وجاء رد الغنوشي على هذا النداء برسالة «ملغمة»، باتهام أصحابه، رفاق رحلة التأسيس، بانقلاب كالذي يقوده جنرالات العسكر. وأكثر مما تَقدّم، نبّههم إلى أن «جلود الزعماء خشنة»، ولا تخضع لعامل التهرئة إن كان مردّ مطالبتهم بتنحّيه تراجع شعبيته. أمّا عملياً، فقد كان الردّ بتغييب الموقّعين على الرسالة الأولى عن اجتماعات المكتب التنفيذي وتنزيلهم مرتبة «الغرباء داخل الحركة». وبالنسبة إلى المستقبلين من الحزب منهم، فقد تعرّضوا لحملات إلكترونية عنوانها التخوين والعمالة لـ«أعداء الحزب». ولم ينتهِ السجال عند هذا الحدّ؛ فـ«مجموعة المئة» عادت لترفع صوت المطالبة بتنحّي الغنوشي، وخاصّة بعد الارتباك الحاصل في تعاطيه مع الموقّعين على الرسالة الأولى. واعتبرت في الرسالة الثانية، الصادرة في تشرين الأوّل 2020، أن واقع الحال في الحزب وفي البلاد «لم يعد يحتمل الصبر».

ويبدو أنه، لولا أحداث الـ 25 من تموز، في بداية اليوم عبر حرق المحتجين مقرّ «النهضة» أو التدابير التي أعلنها سعيد في نهايته، ما كان الغنوشي ليرضخ لإرادة عقد المؤتمر في أقرب الآجال، وهو مؤشّر جليّ إلى انحسار سلطته وقدرته على فرض كلمته داخل مشروعه الذي احتكر لنفسه حقّ التصرف فيه، بل تبدو المسألة الآن طوق نجاة له ولحزبه ليجدّد القيادة والخطاب معاً، ولا سيما في ظلّ الاحترام الشعبي الذي يكنّه جزء من التونسيين لـ«مجموعة المئة» باعتبارها «الصوت العقلاني داخل الحركة». وبقدر ما قد تبدو المسألة تغييراً للجلد الخارجي، فإنها ستعود بالنفع على الحزب ليحافظ على شعبيته، وخصوصاً أنه يعيش أحلك أيامه منذ الثورة، وكان جليّاً أن مقولات احتكاره لسردية «الثورة والديموقراطية» لم تعد تنطلي على «النهضويين» أنفسهم، ما استدعى الانحناء أمام هذه العاصفة.

تبنّت «النهضة» سردية سعيد المتعلقة بـ«تصحيح المسار، وبملاحقة الفساد» (أ ف ب)

تحوّلات تونس في ميزان الخارج: خسارة تركية، استلحاق عربي... وترقّب جزائري

على هامش المشهد الجديد الذي يخطّه الرئيس التونسي قيس سعيّد في بلاده، يرتسم العديد من علامات التغيير المرتبطة بالخارج، متأثّرةً بتداعيات الحراك الداخلي التونسي، في الجزائر الجارة، وفي تركيا البعيدة جغرافياً القريبة سياسياً واقتصادياً. وما بينهما من مشاريع تطبيع ونفط وغاز تمتدّ من المغرب العربي وشمال أفريقيا حتى شرق البحر المتوسّط. يبدو أن ثمّة تحوّلات استراتيجية سيولّدها الحدث التونسي، خصوصاً بعد اكتمال نضوجه

حمزة الخنسا

لا تتوقّف القراءات المتعلّقة بالحدث التونسي على التداعيات الداخلية لإقدام الرئيس قيس سعيّد على ما يصفه خصومه بـ«خطوات تفرّد بالحكم» عبر جمْع الصلاحيات التنفيذية والتشريعية والقضائية إضافةً إلى الإعلامية، بيده وحده، من أجل ما يصفه أنصاره بـ«مهمّة إنقاذ البلاد» من المنحدر الخطير الذي تنزلق إليه. إذ تتعدّاها إلى موقع تونس الجيوسياسي، حيث نجح سعيّد في تحويل معركته ضدّ «حركة النهضة» من معركة صلاحيات إلى مستوى أعلى مرتبط بالسياسة الاستراتيجية للبلاد، وموقعها في الصراع العربي - الإسرائيلي.

في مرحلة ما بعد «الربيع العربي»، تحوّلت تونس إلى ساحة صراع حول النفوذ والتأثير بين محورَين، بما يمثّلان من مصالح وتطلّعات وارتباطات: الأول يضمّ تركيا وقطر بالتحالف مع «الإخوان المسلمين» ممثّلين في «النهضة»، فيما يضمّ الثاني فرنسا ومصر والإمارات والسعودية بدرجة أقلّ. شكّلت هذه الدولة أرضية خصبة للطموح التركي، الذي يسمّيه البعض - استنكاراً - «توسّعاً». وبإزاحة زعيم «النهضة» راشد الغنوشي من المشهد المؤسّساتي بفعل «التدابير الاستثنائية» التي اتّخذها سعيّد، تكون خسارة تركيا هي الأكبر من بين الدول المصطفّة في المحورَين المذكورَين، لما يمثّله الرجل من تأثير بالنسبة إلى موقعها في تلك المنطقة. تقول مصادر سياسية تونسية متابعة إنه في عهد «النهضة»، تحوّلت تونس إلى قاعدة إمداد لجبهة الحرب في ليبيا، إسناداً للدور العسكري التركي في الأخيرة. وعليه، فإنّ خسارة الرافد التونسي تعني إضعافاً لدور أنقرة، ليس في المغرب العربي وشمال أفريقيا فحسب، بل وفي منطقة شرق البحر المتوسّط التي تخوض فيها صراعاً مع الغرب عامّة وفرنسا بصورة خاصّة، للسيطرة على الخزّانات الجوفية لحقول الغاز والنفط. أيضاً، خسرت تركيا سوقاً اقتصادية مهمّة وواعدة فتحها البرلمان التونسي أمام رجال الأعمال الأتراك، عبر قوانين واتفاقات كان آخرها اتفاقية «التشجيع والحماية المتبادلة للاستثمار في تونس وتركيا»، ما سمح لهؤلاء بالتملّك في أصول الدولة. وفي حين تضاعفت صادرات تركيا، إلى تونس لا تصدّر إليها أكثر من 4% من مجمل الميزان التجاري بين الدولتين، مع عدم إغفال حقيقة أن تركيا ضخّت في السنوات الأخيرة أموالاً طائلة في البُنى التحتية التونسية، على شكل ديون سيادية مترتّبة على الشعب التونسي. كلّ ذلك تُرجم، في السياسة، زيادةً في التأثير التركي سياسياً وإدارياً في تونس من بوّابة الاقتصاد، خصوصاً في ظلّ ما عانته البلاد من أزمات متلاحقة، بدءاً بضرب القطاع السياحي وليس انتهاءً بأزمة «كورونا».

> نجح سعيّد في تحويل معركته ضدّ «النهضة» من معركة صلاحيات إلى مستوى أعلى مرتبط بالسياسة الاستراتيجية

«التدابير الاستثنائية» لقيس سعيّد جعلت تركيا الخاسر الأكبر (أ ف ب)

في المقابل، بدت الولايات المتحدة الأميركية، ومعها ما يُسمّى «المجتمع الدولي»، متقبّلَين للتغييرات التي أحدثها سعيّد، وهو ما من شأنه بعْث الارتياح لدى الرجل، وأيضاً لدى الدول العربية المُرحّبة بقراراته، وعلى رأسها بالطبع مصر والسعودية والإمارات. وبحسب المصادر، فإن تلك الدول، بخلاف اتهامات «حركة النهضة»، تحاول الاستثمار في الوضع التونسي الجديد، لكنها لم تكن هي صاحبة القرار والإرادة في تحقيقه. وتضيف أن سعيّد يحاول تنفيذ أجندة تونسية داخلية صرفة، بعيدة عن سياسة المحاور، وإنّ لاقت خطواته استحسان المحور المعادي لـ«الإخوان» في المنطقة العربية، والذي بدأ في محاولات فتح قنوات تواصل وتنسيق مع تونس. على المقلب الجزائري، يبدو أن ثمّة ارتياحاً لجانب ممّا شهده الجار التونسي، وإن ظلّ الحذر قائماً في جوانب أخرى. فالجزائر واقعة بين المغرب (من الغرب) التي يدير حكومتها الأمين العام لحزب «العدالة والتنمية» (إخوان) سعد الدين العثماني (من الغرب)، وبين تونس (من الشرق) التي تسيطر على مؤسّساتها «حركة النهضة»، فضلاً عن الوجود الفاعل والمؤثّر لتركيا و«الإخوان» في ليبيا. هذه المشهدية تعني، بالنسبة إلى المصادر نفسها، استكمال تطويق المغرب العربي وشمال أفريقيا بالكامل، وبالتالي إضعاف الجزائر بشكل خاص، بالحصار تارة، وأخرى بإثارة الملفّات الخلافية مع دول الجوار. وهو ما تضعه المصادر في سياق تعزيز الأتراك نفوذهم وسيطرتهم، حيث كانت تلك الدول «درّة تاج» السلطنة العثمانية في القرنَين السابع عشر والثامن عشر الميلاديَين.

توازياً مع ذلك، لا تنفصل زيارة وزير الخارجية الإسرائيلي يائير لابيد إلى الرباط، الأولى من نوعها إلى المغرب منذ عام 2003، بعد تبنّي حكومة العثماني العام الماضي قراراً يقضي باستئناف العلاقات الدبلوماسية مع تل أبيب، عن وقوف «النهضة» في تونس ضدّ مشروع قانون تجريم التطبيع في البرلمان، واتّهامها من قِبَل أحزاب وتيّارات شعبية تونسية بأنها تعدّ العدّة للانقلاب على مسار العداوة لإسرائيل وإعادة النظر في مقاطعتها، وبالتالي إلحاق تونس بركب الدول المطبّعة. المسار «التطبيعي» المناقض للخطوات الجزائرية، التي كان آخرها مصادقة البرلمان الجزائري بداية العام الجاري على مشروع قانون يجرّم التطبيع مع كيان الاحتلال الإسرائيلي، ترى المصادر أنه أحد «الأسباب الموجبة الإضافية» للعمل الممنهج لضرب الجزائر. وتعتبر أن الموقف المتوازن الذي أبداه الرئيس عبد المجيد تبون، حيال التطوّرات الأخيرة في تونس، قد يشهد تعديلاً أكبر لصالح الرئيس مقابل «النهضة»، وذلك في إطار «تحرّك جزائري» قد تحتّمه التطوّرات لملاقاة النموذج/ التجربة التونسية التي يخوضها سعيّد الآن، بعد اكتمال نضوجها.

سوريا

من شرق الفرات إلى غربه... مغامرة العبور تحت نيران «قسد»

تخوض «قوات سوريا الديمقراطية»، منذ عدّة أشهر، ما يمكن وصفها بـ«الحرب» على المعابر النّهرية الرابطة بين ضفّتَي الفرات في المناطق الواقعة في ريف دير الزور الشرقي. «حربٌ» تبرّرها سلطة الأمر الواقع، المدعومة من قِبَل التحالف الذي تقوده واشنطن، بأنها تشكّل ضرورةً لتأمين المناطق التي تسيطر عليها «قسد»، بغضّ النظر عن احتياجات السكّان المحليّين، الذين كانوا وجدوا في تلك المعابر منفذاً مناسباً لتأمين مستلزماتهم. مُطوِّرين الوسائل الملائمة لجعل عملية النقل والانتقال من خلالها أكثر انسيابية وإنتاجية

محمود عبد اللطيف

تناقلت مواقع التواصل الاجتماعي، خلال الأيام الماضية، تسجيلاً مصوّراً لتسرّب مواد نفطية إلى نهر الفرات بالقرب من مدينة البصيرة، التي تسيطر عليها «قسد». ولدى سؤال «الأخبار» مجموعةً من السكّان المحليّين عن الأمر، تبيّن أنّه ناتجٌ من استهداف الفصائل المدعومة من قِبَل واشنطن إحدى «النشأآت»، التي تُمثّل طريقةً ابتكرها تجّار النفط ومشتقّاته المهرّبة بشكل بدائي، لنقل منتجاتهم إلى الأسواق الواقعة في مدن غرب الفرات. و«النشّال»، أنبوب زراعي يربط بين ضفّتَي النهر، ويوضع على أحد طرفيه محرّك مياه صغير يساعد على استجرار المادّة السائلة المهرّبة فيه. ويتمّ مدّ هذه الأنابيب من خلال استخدام قوارب الصيد الصغيرة ليلاً، تجنُّباً للاستهداف من قِبَل نقاط الحراسة التابعة لـ«قسد». إلّا أنه لا يمكن لتلك الآلية أن تنقل كمّيات ضخمة من المواد النفطية، وما يتمّ بيعه عبرها يكاد لا يكفي احتياجات الأسواق المحلية التي ترغب في هذا النوع من المحروقات على الرغم من خطورته، نتيجة لانخفاض أسعاره مقارنة بالمواد النظامية. ويكشف مصدر أهلي، فضّل عدم الكشف عن هويته، أن أكبر عملية نقل للمشتقّات النفطية بين ضفّتَي الفرات تكون بكمية 25 برميلاً من المازوت أو البنزين، تُشترى أصلاً من «الحراقات»، المملوكة لقياداتٍ في «قسد»، أو لشخصيات مرتبطة بها («الحراق» آلية بدائية لتكرير النفط الخام).

ويتزامن حراك «قسد» ضدّ «النشّالات»، مع حراك مماثل ضدّ «المعابر النّهرية»، التي تُستخدم لنقل المواد الزراعية والركّاب بين ضفّتَي النهر، ويَعرفها السكّان المحليّون باسم «المِعبار»، وهي عبارة عن موانئ نهرية لقوارب مختلفة الأحجام تُصنع محلّياً، كانت ظهرت قبل بدء الأزمة السورية، ثمّ أصبحت هدفاً للطيران الأميركي ضمن مرحلة «عزل الرقّة»، التي كانت سبقت بدء تدمير عاصمة «داعش» في سوريا، قبل أن تسيطر عليها «قسد» في أيلول من العام 2017. وتتمّ صناعة السفن النهرية حسب الطلب، بحسب ما يشرح محمد الحسن، صاحب إحدى ورشات الحدادة في مدينة الشحيل، في ريف دير الزور الشرقي. ويُعتمد فيها، بشكل أساسي، على «البراميل» أو المجسّمات الأسطوانية التي تُصنع لتكون أداةً أوّلية في «تطويف السفينة»، عبر ربط تلك المجسّمات بقضبان معدنية لتثبيت سطح السفينة، والذي يُبنى من ألواح معدنية قادرة على تحمّل الأوزان المختلفة، فيما يتمّ استخدام محرّكات رافعة محلّياً من مِثل «أندريا»، لتأمين دفع السفينة خلال انتقالها بين ضفّتَي نهر الفرات، علماً أن تلك المحرّكات تُستخدم عادةً لضخّ المياه في الأراضي الزّراعية، وتباع في أسواق المنطقة، وهي مستعملة غالباً ومجهولة المصدر، فالمنطقة تعرّضت للنهب من قِبَل أطراف متعدّدة قبل أن يستقرّ حالها تحت سيطرة «قسد» منذ أربع سنوات تقريباً. ويوضح الحسن أنّ تكلفة تصنيع السفينة تختلف بحسب الحجم وسعر صرف الدولار في أسواق شرق الفرات. أمّا أجرة النقل بين ضفّتَي النهر فهي مقبولة، كونها تتراوح بين ألفَين وثلاثة آلاف ليرة بالنسبة للرّاكب، وما بين سبعة آلاف و15 ألف ليرة بالنسبة للسيارة وبحسب حمولتها. وتستغرق الرحلة نحو 15 دقيقة، في مسار قد يكون متعرّجاً بسبب الظروف الأمنية التي تعيشها المنطقة.

> شرّعت «قسد» لنفسها بيع المواد النفطية للمناطق التي تسيطر عليها الفصائل المدعومة من تركيا في ريف حلب

استنسابية «التهريب»

تُعتبر «قسد» المعابر الواقعة في ريف دير الزور الشرقي، خطراً مهدّداً لها، ولذا فهي لا تتورّع عن استهداف السفن المارّة من خلالها بإطلاق النار المباشر عليها. ومنذ شهر نيسان الماضي، فرضت «قسد» منعاً لحركة السفن القادرة على نقل الحمولات المتوسّطة والكبيرة، من حبوب وخضار ومواد نفطية، نحو مناطقُ سيطرة الدولة السورية. وبحسب السكّان المحليّين، فإنّ «قسد» تطلق النار على أيّ تحرّكٍ في النهر ليلاً، حتى ولو بقوارب الصيد الصغيرة التي باتت واحدةً من مصادر العيش الأساسية في ظلّ تردّي الأوضاع المعيشية في المنطقة. المفارقة أن «الإدارة»، التي تشنّ حملات في مناطق شرق الفرات ضدّ عملية نقل المواد النفطية إلى مناطق سيطرة الدولة، تشرعن لنفسها عملية بيع المواد النفطية للمناطق التي تسيطر عليها الفصائل المدعومة من تركيا في ريف حلب الشمالي الشرقي من خلال معبرَي العون - أم جلود.

وليس ثمّة إحصائيةٌ دقيقةٌ أو رسميةٌ لعدد ضحايا عمليات مداهمة المعابر النهرية أو «النشّالات»، إلّا أنّ المعلومات تشير إلى تسجيل حوادث خطرة في أكثر من منطقة من بينها معبر الحواج، الذي يشهد منذ شهر نيسان عمليات تبادل لإطلاق النار بين «قسد» ومَن تصفهم بـ«المهرّبين». كما شاركت القوات الأميركية في أكثر من عملية مداهمة لمعابر في الشحيل والحواج وذيبان والبصيرة، حيث وُجّهت إلى المعتقَلين تهمُ التعامل مع «داعش» وتهريب الأسلحة والمخدّرات.

جسر وحيد

ثمّة جسر وحيد يربط بين ضفّتَي الفرات في دير الزور، وهو جسر عائم بُني بالتعاون بين «الشركة العامة للطرقات والجسور» والجانب الروسي، ليربط بين قريتَي مراط والمريعية. كما تمّ ربط مناطق سيطرة الدولة السورية على ضفّتَي النهر بمعبرَين نهريَّين. ويقول رئيس مجلس مدينة دير الزور، المهندس رائد المنديل، لـ«الأخبار»، إنّ أضراراً كبيرة لحقت بجسر السياسية، نتيجةَ لقصف التحالف الأميركي للجسر في العام 2017، كما أنّ الجسر المعلّق، ذات الطابع السياحي والمُستخدم لعبور المشاة بين ضفّتَي الفرات (الشامية والجزيرة)، في حالة انهيار كامل. ويحتاج كلّ من الجسرَين المذكورَين إلى ميزانية ضخمة غير متوافرة حالياً لإعادة التأهيل، فيما بدأت عملية صيانة جسر البعث، الرابط بين أحياء وسط مدينة دير الزور بالتعاون مع إحدى المنظمات الدولية. وعلى الرغم من توقّع إتمام صيانته خلال 5 أشهر، إلّا أنه لا يربط بين غرب الفرات وشرقه، وبالتالي فإنّ أثره موضعي وينحصر داخل مدينة دير الزور. ويضيف المنديل أنّ «العبّارتَين»، اللّتَين أُطلق العمل بهما قبل عامَين تقريباً، تنقلان الركاب وحمولة تصل إلى أربع آليات متوسّطة أو صغيرة، بشكل مجّاني، بين ضفّتَي نهر الفرات، فيما يُترك الجسر العائم لمرور الشاحنات الكبيرة أو ذات الحمولة العالية، بما يساعد على تخفيف الأعباء قدر الإمكان، وسط الحاجة إلى إمكانيات ضخمة لإعادة ربط ضفّتَي الفرات بجسورٍ دائمة.

«قسد» تستهدف «المعابر النهرية» التي تستخدم لنقل المواد الزراعية والركاب بين ضفّتَي النهر (الأخبار)

قضية

إثيوبيا تحت قيادة آبي أحمد: «فنّ» توليد الأزمات

على رغم المكاسب التي حقّقها في ملفّ "سدّ النهضة" بمواجهة مصر، إلا أن أبي أحمد لا يفتأ يحصد خسائر متتالية في ملفّات مختلفة في القرن الأفريقي. بدءاً من علاقته المنحدرة بحليفه السابق أسياس أفورقي، مروراً بتراجع نفوذ بلاده في الصومال، وصولاً إلى فتور العلاقات مع جيبوتي وصعود المنافس السوداني. وليس انتهاءً بأزمة تيغراي التي لا تزال تُولّد تداعيات داخلية وخارجية خطيرة

محمد عبد الكريم أحمد

ترجع أصول الوضع المضطرب في إقليم القرن الأفريقي إلى تجربته الفريدة في العهد الاستعماري، لا سيما عمليات ترسيم الحدود، وسوء إدارة الانتقال السياسي، وصولاً إلى الحكم الذاتي، وما تلى تلك المرحلة من تنافس أميركي - سوفياتي على الإقليم، من خلال علاقات بالوكالة فاقمت الآثار الكارثية للصراعات الخارجية والتي تصاعَد حجمها بفعل تدفّق أعداد كبيرة من المستشارين العسكريّين والأسلحة والمساعدات والقوات الأجنبيّة في عقود الحرب الباردة. هذه الصراعات متعدّدة المستويات غذّت حالة عدم الاستقرار والنزعة القومية الإثنية المزمنة (Melvin, Neil, SIPRI, April 2019)، والتي استمرّت تداعياتها حتى اليوم. لكن وصول أبي أحمد إلى رئاسة وزراء إثيوبيا، إحدى كبرى الدول الأفريقية في نيسان 2018، بشّر بالنسبة إلى محلّلين كثر بحدوث «تحوّل ديمقراطي» مهمّ وواسع في الإقليم، على رغم وصول أحمد إلى منصبه بمقتضى عملية «غير سياسية»، وفي ظروف غامضة تكشّفت بعد إقالته منافسه - وقتها - واحد أوثق رجاله، وزير الدفاع في حكومته ليما مجرسا (آب 2020)، وتعيينه رئيس جهاز الأمن السابق في إقليم أوروميا، كيني ياديتا، محلّه، ما رجّح فكرة وصول أبي أحمد «بترتيبات أمنية». وانعكست إشكالية تسلّم السلطة في هشاشة مقاربات رئيس الوزراء الإثيوبي الداخلية والإقليمية، لا سيما جهوده المشتركة مع الرئيس الإريتري، أسياس أفورقي، لـ«إعادة ترتيب القرن الأفريقي»، وانحسار جهود الأوّل راهناً - بعد تمدّد إثيوبيا في الإقليم بما يفوق قدراتها الحقيقية - في الحفاظ على ما تبقّى من وحدة البلاد سياسياً.

أبي أحمد وإعادة ترتيب «القرن الأفريقي»

بالغت «الميديا» الغربية في الاحتفاء بوصول أبي أحمد إلى رئاسة الوزراء، وتوصّله إلى اتفاق سلام مع إريتريا (على رغم كونه اتفاقاً هلامياً، لم ينصّ على خطوات ومواعيد محدّدة، فضلاً عن حقيقة هندسته ورعايته أميركياً وسعودياً، وليس بمبادرة ذاتية من أحمد وأفورقي)، بوصْف ذلك خطوة على طريق تكوين «قرن أفريقي جديد». وزاد محلّلون أفارقة وعرب على ما تَقدّم توقّعهم أن يعزّز أحمد، بانتهاجه «دبلوماسية تصفير المشكلات»، حالة السلم والأمن والتحوّل الديمقراطي في الإقليم، وأن ينقل تجربته - كقائد شاب - إلى بقية أرجاء القارة. لكن عملية «إعادة الترتيب» اقتصرت في واقع الأمر على تولّد استقطاب سياسي على مستوى رؤساء الدول والحكومات في الإقليم، للدفع باتجاه سلطوية تستهدف استنساخ «النموذج الإريتري»، والتبشير بإطلاق «تجمُّع اقتصادي» إقليمي - فرعي بين إثيوبيا وإريتريا والصومال وجيبوتي، وتعزيز النفوذ الإثيوبي في الصومال، بالتنسيق مع إريتريا، وفق ما اتّضح لاحقاً في نهاية تموز الماضي.

ومطلع العام الجاري (Toward a Peaceful Order in the Horn of Africa, Project Syndicate, Feb 6,2021)، حدّد أبي أحمد رؤيته بالقول إن «سياسة إثيوبيا الخارجية تقوم على الاعتقاد بأن التكامل الإقليمي الأوثق سيفيد الجميع»، وإن السبيل الرئيس أمام إثيوبيا لتحقيق هذه الغاية، هو تفعيل منطقة التجارة الحرّة القارية الأفريقية، ضارباً المثل بممرّ أديس أبابا - نيروبي - ممباسا (مع كينيا)، وإعادة تأهيل الطريق الرابط بين أديس أبابا وميناء عصب الإريتري لفتحه أمام التجارة الدولية (وهي عملية لم تتمّ، وفق ما أظهرته يوميات أزمة إقليم تيغراي)، وتنفيذ خطّة افتتاح طرق جديدة لاستبدال القديمة مع ميناءَي جيبوتي وعصب (مع ملاحظة المفارقة الزمنية بين إعادة تأهيل طريق عصب واستبدال آخر جديد به في سياق وجيز للغاية، ما يكشف نزوع أبي أحمد إلى تحقيق منجزات على الورق لتسويغ سياساته).

على أيّ حال، لم يصل القرن الأفريقي، في صيف 2021، إلى بداية حقيقية لعملية إعادة الترتيب تلك، أو حتى العودة إلى نقطة ما قبل وصول أبي أحمد إلى الحُكم، بل إن الإقليم يشهد موجات فوضى ونزاعات إثنية ضخمة مرشّحة للتصاعد وتجاوز الحدود الإثيوبية إلى دول الجوار (لا سيما في إريتريا والصومال)، ربّما قبل نهاية العام الحالي.

تبدّل ديناميات العلاقة مع أفورقي

لاحظ مراقبون، منذ التقارب الأوّلي بين أحمد وأفورقي بعد اتفاق السلام بينهما (تموز 2018)، رؤية الأوّل للثاني بوصفه «أباً روحياً» جديراً بالاقتداء به. وبالفعل، فإن صعود أحمد صاحَبَه تغيُّر شبه كلّي في سياسات الأخير تجاه عدّة دول إقليمية مهمّة، أبرزها مصر، وهو ما كشف أهمية هذه العلاقة لدى أفورقي. وتجسّد التعاون بينهما في الترتيب لشنّ هجوم شامل على إقليم تيغراي (تشرين الثاني 2020) وتنسيق المواقف الرسمية في هذا الشأن. لكن، وعلى رغم توحُّد أهدافهما من «الحرب»، لا سيما للقضاء على «جبهة تحرير تيغراي»، فإن أفورقي خرج منها مستفيداً تماماً، على الأقلّ من الناحية الاستراتيجية، كما أنه نجح - بحسب مراقبين - في تحقيق أهداف عدّة، من بينها هدفُه الرئيس: «بلقَنَة إثيوبيا»، عبر إذكاء الصراعات الإثنية داخلها، وإزاحة «جبهة تحرير تيغراي» من المشهد السياسي في إثيوبيا الفدرالية. وبشكل غير مباشر، فإن نزع الشرعية عن نظام أبي أحمد داخلياً، يجعل إثيوبيا غير قابلة للحُكم من دون دعم إريتري. وهكذا، فإن ما وصفه محلّلون بـ«زواج المصلحة» بين أفورقي وأبي أحمد، منح الأوّل فرصة فرض تكاليف عسكرية استراتيجية وجيوسياسية تعزّز بقاء نظامه إقليمياً، على حساب نظام أحمد وإثيوبيا. كما تلبّي الأزمة حاجة نظام أفورقي إلى أعداء في الداخل والخارج، وتصوير بلاده في حالة حرب دائمة، وبأن الإقليم برمّته في حالة تهديد عام، وهو ما سيضطرّ الإريتريين،

> نزع الشرعية عن نظام أبي أحمد داخلياً، يجعل إثيوبيا غير قابلة للحُكم من دون دعم إريتري

> تداعت «أزمة تيغراي» خارج الحدود الإثيوبية، وقادت إلى أزمة لاجئين كبيرة في السودان

كالعادة، لمقايضة الأمن بالحرية والديمقراطية والتنمية، لتستمرّ ديكتاتورية أفورقي في الأعوام المقبلة.

تراجع النفوذ في الصومال

باءت الدبلوماسية الإثيوبية في الصومال بفشل ذريع، بعد محاولتها رفد الرئيس الصومالي المنتهية ولايته، محمد عبد الله فرماجو، الذي انتهج سياسة خارجية متناغمة مع محور أسمرا - أديس أبابا، بدعم كان متوقّعاً لتمديد فترة رئاسته عامين آخرين، لا سيما أن الأخير أرسل نحو خمسة آلاف جندي صومالي للمشاركة في حملة تيغراي تحت غطاء مهام التدريب العسكري في إريتريا، وبإشراف مباشر من جهاز المخابرات الصومالي، وليس قيادة جيش هذا البلد كما هو متّبَع في بعثات تدريب صومالية أخرى في تركيا وأوغندا على سبيل المثال. وتمثّل الفشل الإثيوبي في الاستبعاد العملي لفرماجو من المشهد السياسي الصومالي في شباط - آذار 2021، وتصدُّر رئيس الوزراء، حسين روبلي، الذي يتولّى مراقبة العملية الانتخابية الجارية حالياً، متجاهلاً أيّ اتصالات مباشرة مع أبي أحمد أو المسؤولين الإثيوبيين. ويبدو أن الفترة المقبلة في الصومال ستشهد تراجعاً إضافياً في نفوذ أبي أحمد وإثيوبيا في الشؤون الصومالية، خصوصاً بعد قرار مقديشو إعادة آلاف الجنود الصوماليين الذين توجّهوا إلى إريتريا، في ضربة مدوّية لصلات نظام فرماجو، أعقبت تحقيقات أجرتها الحكومة داخلياً.

فتور «الصلة الخاصة» مع جيبوتي

يمكن فهم الصلة الخاصة بين جيبوتي وإثيوبيا بالنظر إلى أن 85% من الناتج المحلّي الإجمالي للأولى يتحقّق من قطاع الخدمات؛ فيما تعتمد إثيوبيا على ميناء جيبوتي وبنية النقل الأساسية المتعلّقة به في تمرير 95% من تجارتها بحراً (قدّر «البنك الدولي» أن أكثر من 85% من أنشطة ميناء جيبوتي متّصلة بالتجارة الإثيوبية). على ضوء ذلك، كان الرئيس الجيبوتي، عمر جيله، من أشدّ الداعمين لسياسات أبي أحمد بعد أزمة تيغراي، وهو ما استمرّ حتى إعادة انتخاب الأخير رئيساً لبلاده في نيسان الفائت، حيث بدا أن ثمّة فتوراً واضحاً في العلاقات مع أديس أبابا بعد نيسان الفائت، خصوصاً على وقع تصاعد أزمة عدم الاستقرار السياسي في إثيوبيا، وامتدادها إلى إقليمَي العفر والصومالي الإثيوبيَّين والمحيطين بجيبوتي، والذي أدى إلى قطع خطّ سكك حديد أديس أبابا - جيبوتي لعدّة أيّام قبل عودته في الأسبوع الأوّل من الشهر الجاري. وما فاقم الضرر الذي لحق بتلك الصلة الخاصة، انهزام القوات الفدرالية الإثيوبية والقوات المتعاونة معها، وإقدام أديس أبابا، بالتعاون مع شركة «موانئ دبي العالمية» وحكومة ولاية أرض الصومال، على تدشين العمل بمحطّة حاويات ميناء بربرة القريب من ميناء جيبوتي نهاية حزيران الماضي، الأمر الذي يهدّد مكانة الأخير على أكثر من مستوى. وإذا أُضيفَت إلى ما تَقدّم خطط توسّع إثيوبيا في سياسة الموانئ عبر استغلال ميناءَي عصب ومصوع الإريتريَّين، وما يتردّد عن مطالب إثيوبية شبه رسمية بحقّ وصولٍ إلى ميناء بورتسودان وفق ترتيبات إقليمية، فإنّ الصلة الخاصة بين جيبوتي وأديس أبابا تكون آخذة في التآكل بشكل متزايد.

السودان وإمكانات استبدال الدور الإثيوبي

أعلن أبي أحمد، في الخامس من آب الجاري، رفْض أيّ مساعٍ للوساطة السودانية في أزمة إقليم تيغراي، على رغم وجاهة قيام السودان بذلك كونه أحد أبرز المتضرّرين من الأزمة، في ضوء عبء اللاجئين الإثيوبيّين والإريتريّين على أراضيه. وجاءت أنباء رفْض أحمد للوساطة، بعد ساعات من مناقشات موسّعة بين وزير الخارجية الأميركي أنتوني بلينكن، ورئيس الوزراء السوداني عبد الله حمدوك (4 آب)، اختُتمت بالاتفاق على ضغط البلدين لعقد مفاوضات تقود إلى «وقفٍ لإطلاق النار»، وتحجيم المواجهات التي امتدّت إلى إقليمَي الأمهرا والعفر. ويؤشّر الرفض الإثيوبي للعرض السوداني إلى تزايد مخاوف أبي أحمد من تصاعد حضور الخرطوم في ديناميات المقاربات الدولية لأزمات القرن الأفريقي. وهي مخاوف عزّزتها الاتصالات رفيعة المستوى والمكثّفة، منذ تموز الفائت، بين الإدارة الأميركية وحكومة حمدوك بخصوص ملفّات متعدّدة في الإقليم (من مثل الإرهاب، وأوضاع اللاجئين، والأزمة الداخلية في إثيوبيا، والعلاقات مع إريتريا).

تداعيات أزمة تيغراي

في مقاله الشهير المنشور في شباط الماضي على منصّة «Project Syndicate» عن السعي إلى نظام سلمي في القرن الأفريقي، استهلّ أبي أحمد رؤيته تلك بتأكيده أن «انتصار الحكومة الإثيوبية على جبهة تحرير شعب تيغراي قد تَحقّق بتكلفة مرتفعة»، وأن الوضع الإنساني في شمال تيغراي «يظلّ جسيماً». ويمكن تفسير خطاب أبي أحمد في أحد اتّجاهَين: إمّا جهل واضح بمجريات الأمور التي قادت إلى هزيمة الجيش الإثيوبي المذلّة (نهاية حزيران الفائت)، أو استمرار حالة «الإنكار» الملازمة للزعيم الإثيوبي منذ وصوله إلى الحكم. وفي تداعيات أزمة تيغراي الداخلية والإقليمية، يجري التحذير من نموّ حركة انفصالية، أمهرية هذه المرّة، في عضد نظام أبي أحمد. إذ تجاوز الإثيوبيون النظر إلى الانتخابات الأخيرة (11 تموز الفائت، والتي فاز فيها حزب «الازدهار» الحاكم بأغلبية 410 مقاعد من إجمالي 436 مقعداً) على أنها نقطة بداية جديدة لإطلاق حوار وطني شامل، لتنخرط الأقاليم المختلفة في اشتباكات إثنية قابلة للتمدُّد. كذلك، قادت أزمة تيغراي إلى أزمة لاجئين كبيرة في السودان، وولّدت تهديدات بإعادة انخراط أكبر للقوات الإريترية لتعويض خسائر الجيش الفدرالي الإثيوبي والميليشيات الأمهرية الموالية له (وسط تقارير تفيد بتحقيق «جبهة تحرير تيغراي» انتصارات متوالية في إقليم الأمهرا، معقل الدعم السياسي لنظام أبي أحمد حتى الآن على رغم حالة عدم الرضى عن أدائه)، وفرضت ضغوطاً عسكرية وأمنية على دول الجوار، لا سيما جيبوتي والسودان، لمنع انتقال أحداث العنف إلى داخل حدودها. ويبدو، في المحصّلة، أن نظام أبي أحمد لم ينجح إلّا في رفع مستوى التهديد بفوضى شاملة في إقليم القرن الأفريقي، والدفع بفكرة أن المسوّغ الأوّل لبقاء هذا النظام، هو تفادي هذه الفوضى ليس أكثر.

يؤكد أبي أحمد أن انتصار الحكومة الإثيوبية على «جبهة تحرير شعب تيغراي» تحقّق بتكلفة مرتفعة (أ ف ب)

تقرير

الرياض - واشنطن: اختبار أيلول

عشرون عاماً مرّت على هجمات 11 أيلول، ومازال السؤال معلّقاً: ما الذي تخفيه الوثائق السرّية التي يقال إنها تتضمّن معلومات عن تورّط مسؤولين سعوديين في الهجمات؟ يبدو أن الجواب لن يتأخّر كثيراً مع استعداد الإدارة الأميركية لرفع السرّية، كلّياً أو جزئياً، عن هذه الوثائق، في خطوة ستُلحِق، في حال تحقّقها، أضراراً كبيرة بالرياض. توازياً مع فتْحها الباب على مساومات جديدة بين الأخيرة وبين «حليفتها» واشنطن

حسين إبراهيم

على غير العادة في أيلول من كلّ عام، حين كان يتمّ إحياء ذكرى الهجمات على نيويورك وواشنطن، بلا كثير جلبة، يبدو أن احتفال الشهر المقبل، سيكون منعطفاً في تاريخ العلاقات السعودية - الأميركية، مع استعداد إدارة جو بايدن لرفع السرّية، جزئياً أو كلّياً، عن وثائق 11 أيلول التي تدين مسؤولين سعوديين في تقديم مساعدة مباشرة للانتحاريين الذين نفّذوا الهجمات بطائرات على المدينتَين في عام 2001. على أن التجربة تقول إنه لا شيء يقع خارج البازار بين أميركا والسعودية، منذ أن قامت علاقاتهما قبل ثلاثة أرباع القرن على المقايضة التي وضعها عبد العزيز آل سعود وفرانكلين روزفلت، والقاضية بحماية النظام السعودي، مقابل كلّ ما تريده واشنطن، وفي متناول الرياض أن تفعله، سرّاً وعلانية. ثمّ تقلّبت العلاقات منذ ذلك الحين كثيراً، إلى أن وصلت في السنوات الأخيرة، إلى مرحلة التشكيك الأميركي في ما إذا كانت كلفة حماية النظام السعودي، عسكرياً وأخلاقياً، تبرّر بقاء المعادلة كما هي.

إذا قرّر بايدن رفع السرّية عن كلّ وثائق 11 أيلول، فستتعرّض هذه المقايضة لأقسى اختبار لها على الإطلاق. إذ الإثيوبيون النظر إلى الانتخابات الأخيرة (11 تموز الفائت، والتي فاز فيها حزب «الازدهار» الحاكم بأغلبية 410 مقاعد من إجمالي 436 مقعداً) على أنها نقطة بداية جديدة لإطلاق حوار وطني شامل، لتنخرط الأقاليم المختلفة في اشتباكات إثنية قابلة للتمدُّد. كذلك، قادت أزمة تيغراي إلى أزمة لاجئين كبيرة في السودان، وولّدت تهديدات بإعادة انخراط أكبر للقوات الإريترية لتعويض خسائر الجيش الفدرالي الإثيوبي والميليشيات الأمهرية الموالية له (وسط تقارير تفيد بتحقيق «جبهة تحرير تيغراي» انتصارات متوالية في إقليم الأمهرا، معقل الدعم السياسي لنظام أبي أحمد حتى الآن على رغم حالة عدم الرضى عن أدائه)، وفرضت ضغوطاً عسكرية وأمنية على دول الجوار، لا سيما جيبوتي والسودان، لمنع انتقال أحداث العنف إلى داخل حدودها. ويبدو، في المحصّلة، أن نظام أبي أحمد لم ينجح إلّا في رفع مستوى التهديد بفوضى شاملة في إقليم القرن الأفريقي، والدفع بفكرة أن المسوّغ الأوّل لبقاء هذا النظام، هو تفادي هذه الفوضى ليس أكثر.

العلاقة بين البلدين، وبفضل المساعي الدؤوبة من قِبَل الإدارات المتعاقبة، جمهورية وديمقراطية، لحماية تلك العلاقة، لأسباب ليست كلّها مكشوفة. لا هامش مناورة كبيراً أمام بايدن، أوّلاً لأنه أقام جزءاً أساسياً من حملته الانتخابية في مجال السياسة الخارجية على محاسبة السعودية التي وصفها بـ"الدولة المارقة"، قبل أن يتصرّف بغير ما يقتضيه ذلك الوصف، حين اصطدم بالوقائع؛ وثانياً لأن المعنيّين، وفي مقدّمتهم ذوو الضحايا، وضعوه أمام أحد خيارَين تحت طائلة منْعه من حضور احتفالهم بالذكرى الشهر المقبل: إمّا نحن وإمّا السعودية. وقد بدأت الإدارة بالفعل في مراجعة الوثائق تمهيداً لرفع السرّية عنها. والسؤال الكبير هو هل سيقبل أهالي الضحايا بحلّ جزئي للمسألة لا يصل إلى النهايات، أي لا يكشف كلّ الوثائق في انتظار ظروف مستقبلية ملائمة؟

واقعة أن إدارة بايدن أفرجت عن تقرير "سي أي إي" الذي يورّط محمد بن سلمان في مقتل الصحافي جمال خاشقجي، من دون أن تفرض عليه عقوبات، تحمل على الاعتقاد بأن الأمور لن تبقى على جمودها في ما يتّصل بوثائق 11 أيلول، ولكنها في المقابل تُقدّم نموذجاً لما يمكن أن يكون عليه البازار، ولا سيما أن التسويات ستجري مع ابن سلمان نفسه، الذي لديه الكثير ليطلبه من إدارة بايدن، التي تتّخذ موقفاً سلبياً منه في العلن، ولكنها أظهرت استعداداً للمساومة معه في الخفاء. 11 أيلول 2001 هو التاريخ الذي شهد أكبر تحوّل في العلاقات السعودية - الأميركية، حين استفاق الأميركيون على حقيقة أن 15 من أصل 19 انتحارياً نفّذوا الهجمات، سعوديون. تلك كانت الضربة الأولى لصفقة عبد العزيز - روزفلت، وصارت بعدها العلاقة علاقة كراهية تُلطّف منها المصالح، بعدما كانت في السابق صداقة قائمة على المصالح. وفي أميركا الآن، ثمّة من يتساءل عن مَن هو صاحب اليد العليا في هذه العلاقات، ولو على سبيل التعبير عن الغضب من منْح السعودية استثناءات في السياسات التي طبّقتها الإدارات الأميركية المتعاقبة، لا على سبيل توصيف واقع قائم فعلياً.

الذكرى العشرون للحدث لن تكون مثل غيرها. طال صبر ذوي الضحايا على إداراتهم، هم الذين يطاردون السعودية في المحاكم الفيدرالية منذ وقوع الهجمات، إلى أن وجدوا في بايدن خاصرة رخوة لتحقيق الاختراق الذي طال انتظاره. لكن الرئيس الذي وعد بإعادة الشفافية إلى الحكومة، عاد ليكرّر نفس سلوك أسلافه الثلاثة، الذين دأبوا في قضية

> يريد ابن سلمان من إدارة بايدن تغطية تولّيه العرش، وسيكون مستعدّاً لأيّ مساومة مع الأميركيين تُحقّق له هدفه

11 أيلول بالذات، على تفضيل العلاقة مع النظام السعودي وحمايتها، على تحقيق العدالة للأميركيين. إذا تمّ تحميل الرياض، ولو عبر اتهام مسؤولين فيها، وليس قيادتها السياسية، وزر أكبر هجوم تتعرّض له الأراضي الأميركية منذ بيرل هاربر في الحرب العالمية الثانية، فإن الثمن الذي ستدفعه سيكون باهظاً سياسياً واقتصادياً، إلى درجة أنه قد ينقل المملكة من حال إلى حال، وقد يرهن جزءاً من ثروتها ومستقبل أجيالها للأميركيين. فلْنتخيّل حجم التعويضات التي سيكون على المملكة أن تدفعها عن ثلاثة آلاف قتيل، إذا قُدّمت الأوراق السرّية إلى المحكمة وأظهرت تورّط مسؤولين سعوديين في الهجمات. ماذا سيحلّ بالأصول السعودية في أميركا، سواء كانت أموالاً في البنوك بأسماء مسؤولين سعوديين، أو سندات خزينة أميركية مملوكة للحكومة السعودية، أو أصولاً عقارية، أو أسهماً في شركات أميركية مملوكة للصندوق السيادي السعودي؟ سيتلقّى الاستثمار السعودي في الخارج ضربة كبرى، وسيكون مصير جزء من الثروة السعودية الانمحاء، كما سيسلّط الشارع الأميركي ضغوطاً على الحزبين الجمهوري والديمقراطي من أجل فرض عقوبات على السعودية من خلال تفعيل قانون "جاستا". أمّا الجانب السياسي فلا يقلّ أهمية، ولْنتخيّل في هذا الشقّ ما الذي تستطيع واشنطن أن تفرضه على الرياض، في ظلّ وجود حُكم غير مستقرّ بقيادة ابن سلمان، يمكن للأولى تكبيل يدَي ولي العهد السعودي تماماً، من دون أن يستطيع المقاومة.

الحقائق القليلة المعلَنة سابقاً من مضمون تلك الوثائق، تشي بأنها من النوع الذي سيُحدث صدمة عند الكشف عنه. فالمباحث الفيدرالية و"سي آي إي" أكدا، سابقاً، أن الحكومة السعودية اخترقت تنظيم "القاعدة" واستخدمته قبل هجمات 11 أيلول، فيما أفاد محقّقون فيدراليون، في تقرير مُقلَق جداً، بأن مسؤولين سعوديين وجّهوا مساعدات إلى اثنَين على الأقلّ من الخاطفين لدى وصولهما إلى الولايات المتحدة، في السكن والتنقّل، وفتح وتمويل حسابات مصرفية، والحصول على وثائق هوية، والاندماج في المجتمع، والتسجّل في مدارس لتعلّم الطيران. كما اعترفت المباحث الفيدرالية ووزارة العدل بأن لديهما وثائق ذات صلة كبيرة بدور مسؤولين سعوديين في مساعدة الإرهابيين، لكن هذه الوثائق ما زالت محجوبة عن الرأي العام بقرار من المدّعي العام السابق في حكومة دونالد ترامب، وليام بار، الذي استخدم بند "امتياز أسرار الدولة" في القوانين، لتعويق العدالة. وحتى الساعة، لم تُظهر إدارة بايدن أيّ اهتمام بمراجعة هذا القرار، ولو عبر اتهام مسؤولين فيها، وليس قيادتها تستخدمان كلّ ما في جعبتهما من حيل قانونية لعدم عرض الوثائق التي يطلبها ممثّلو الادّعاء في المحكمة. كذلك، لم يُظهر الكونغرس حتى الآن رغبة في إلزام الرئيس بالكشف عن تلك الوثائق، على رغم مساعي الكثير من المشرّعين إلى رفع السرّية عنها.

يريد ابن سلمان من إدارة بايدن تغطية تولّيه العرش، وسيكون مستعدّاً لأيّ مساومة مع الأميركيين تُحقّق له هدفه، ليصبح شريكاً للولايات المتحدة في تدفيع الشعب السعودي ثمن ذنب لم يقترفه، وسلْبه جزءاً من ثروته. لقد فعل وليّ العهد ذلك من قبل، حين عقد صفقة الأسلحة ذات مئات مليارات الدولارات مع دونالد ترامب مقابل دعم "الانقلاب" الذي جاء به إلى منصبه. على أن الدفاع عن مصالح السعودية يقتضي تصرّفاً مختلفاً من جانب حكّامها، قوامه رفْض تحميل الشعب السعودي مسؤولية ما جنته يدا بعض المسؤولين السعوديين. ويمكنها، في هذا السبيل، استخدام أوراق قوّة محتملة كبيرة، من بينها، مثلاً لا حصراً، قدرتها على التحكّم بأسعار النفط التي يريد بايدن الآن خفضها، والمصالحة مع إيران، والرجوع عن السياسات الخاطئة في كلّ ملفّات الأزمات التي تورّطت فيها الرياض.

التجربة تقول إنه لا شيء يقع خارج البازار بين أميركا والسعودية (من الويب)

تركيا

اللجوء السوري في الواجهة مجدّداً: انبعاث دعوات الطرد

تبرز مسألة اللاجئين السوريين في تركيا، منذ بضعة أيّام، مادةً أولى للجدل بين المعارضة وسلطات حزب «العدالة والتنمية»، في أعقاب قتل شاب تركي على أيدي مجموعة من اللاجئين. حادثةٌ أنهمرت على إثرها الدعوات لإعادة اللاجئين إلى ديارهم، والتنسيق مع الحكومة السورية لإتمام هذه المهمّة، فيما شغلت المعارضة بتصفية حساباتها مع الحزب الحاكم الذي وضع ما جرى في إطار العمل المدبّر للتحريض على السوريين

محمد نور الدين

يوم الثلاثاء الماضي، كانت منطقة ألتين داغ، في محافظة أنقرة، على موعد مع طعن شاب تركي يُدعى أميرخان يالتشين (18 عاماً)، على أيدي مجموعات تَبيّن أنها من اللاجئين السوريين. حادثةٌ انفجر الوضع على إثرها، ما دفع مئات الشبان الأتراك للتوجّه إلى المنطقة حيث قُتل الشاب، ورمي بيوت السوريين بالحجارة، قبل أن تسارع الشرطة إلى التدخّل لاحتواء الوضع واعتقال المتهمين. إلّا أن استمرار تخريب بيوت السوريين ومحالّهم، استدعى، بدوره، حشد المزيد من قوات التدخّل السريع، فيما سُجّل نزوح عدد كبير من هذه العائلات إلى مناطق أخرى. وفي تفاصيل ما جرى، يروي الكاتب سركان آلان، في صحيفة «غازيتيه دوار»، أن «الأتراك هاجموا بيوت السوريين وخرّبوها وسرقوا محتوياتها وأشعلوا النار في بعضها»، حتى إن المشهد نفسه بات يتكرّر في كلّ أنحاء البلدة: «سوريون يتأبّطون حقائبهم ويغادرون إلى أمكنة أخرى». وينقل الكاتب عن بعض اللاجئين، قولهم: «لقد جاؤوا وقالوا لنا هيّا اذهبوا. ولكن إلى أين نذهب؟»، فيما يلفت آخرون إلى أن المهاجمين كانوا غرباء عن المنطقة وجاؤوا من الخارج. وبينما يستنكر أحد السكّان الاعتداء على السوريين على اعتبار أنهم «ليسوا أجانب بل هم مسلمون»، فإن قريبة الضحية تقول: «(إننا) لا نريد لاجئين سوريين هنا. لقد قُتل أحد شبابنا. منذ وقت طويل نقول لرجب طيب إردوغان أعِدْهم إلى بلادهم، ولكنه لا يفعل. كنّا نُعطي أصواتنا لحزب العدالة والتنمية، لكننا لن نفعل بعد الآن».

> برزت مخاوف في تركيا من أن تكون الحادثة مدبّرة في سياق التحريض على اللاجئين السوريين

إزاء ذلك، برزت مخاوف من أن تكون الحادثة مدبّرة في سياق التحريض على اللاجئين السوريين، وهو ما عبّر عنه بعض المعنيين، داعين إلى اليقظة والتروّي. ورأى محافظ أنقرة المعارض، منصور صافاش، أن تكرار الحوادث المشابهة يستدعي خطة عمل عاجلة في شأن اللاجئين، مُتمنّياً أن تضمن هذه الخطة عودة قريبة لهم إلى ديارهم. وفيما اعتبر الناطق الرسمي باسم حزب «العدالة والتنمية»، عمر تشيليك، أن ما جرى عمل تحريضي، صبّت المعارضة انتقاداتها على الحكومة، إذ قال زعيم «حزب الشعب الجمهوري»، كمال كيليتشدار أوغلو: «(إننا) ندرك حساسيّة الوضع، لكن يجب ألّا نسقط في فخّ السلطة. إن الانتقام لا يكون من المدنيين العزّل الأبرياء، بل بتصفية الحساب مع السلطة»، من جهتها، وصفت الناطقة باسم «حزب الشعوب الديمقراطي» الكردي، إيبرو غوناي، ما جرى بأنه جزء من مخططات الفوضى التي يُراد تعميمها في البلاد، داعيةً إلى «التصرّف بهدوء» إزاءها. وفي الإطار نفسه، قال رئيس حزب «الحرية والتقدُّم» المعارض، علي باباجان، إن كسب الانتخابات لا يتمّ عبر إحراق البلد، داعياً الحكومة إلى توفير الشروط اللازمة لإعادة السوريين إلى بلادهم.

تعليقاً على الحادثة، يقول أحمد حاقان، في مقالته في صحيفة «حرييت»، إن احتمالات تعميم الفوضى في البلاد «كبيرة جداً». فالتعليقات، بحسبه، «تشي بذلك، وهذا الخطاب يفضي إلى النزعة العرقية والفاشية». وفي صحيفة «قرار»، يلفت عاكف باقي إلى أن تركيا تعاني من مشكلة اللاجئين، بسبب غياب سياسة حكومية خاصة بالهجرة، وهي مشكلة ستتفاقم وسط ترقّب تدفّق مزيد من المهاجرين الأفغان إلى تركيا التي تستضيف أصلاً ثلاثة ملايين و690 ألفاً من السوريين. ووفق صحيفة «أيدينلق»، أظهر مقتل أميرخان أن «مشكلة اللاجئين مسألة أمن قومي»، وأن «الوضع يبدو مفتوحاً على صعوبات لا يمكن مواجهتها. لذا، فإن مسؤولية الحكومة كبيرة في وضع خطة للعلاج». واتّهمت الصحيفة الولايات المتحدة باستغلال مشكلات اللاجئين للتحريض على تركيا وإدخالها في مرحلة من الفوضى. وتُنقل الصحيفة عن مسؤول «حزب الوطن» في أنقرة، دينيز طوق غوز، قوله إن «مشكلة اللاجئين هي نتيجة، فيما المشكلة هي مخططات أميركا لتقسيم سوريا وتركيا وجعلهما مجرّد ممرّ للإرهاب». ويعتبر طوق غوز أن «تركيا لن تستفيد مطلقاً من صفقتها الأطلسية. لذا، فإن حزب الوطن يدعو إلى تعزيز العلاقات مع الشرق مثل الصين وروسيا وإيران والدفاع عن وحدة سوريا وسيادتها. كما ندعو إلى عودة كلّ اللاجئين السوريين إلى بلادهم». وبحسب المسؤول في حزب «الوطن» في ألتين داغ، دينيز باشبينار، فإن «عودة اللاجئين السوريين إلى بلادهم مطلب مشترك للجميع ويريح الوضع. لذا، فإن اتفاقاً سريعاً مع سوريا هو الحلّ». من جهته، يقول نقيب المحامين، متين فيزي أوغلو، إنه «كان على اللاجئين السوريين أن يُجمعوا في معسكرات ومناطق محدّدة بعيداً عن التحريضات مع الناس. لكن نجد أنهم منتشرون في كل مكان»، مشدّداً أن على السوريين العودة إلى بلادهم، ولا سيما أن في سوريا مناطق آمنة كثيرة، كما أن السوريين في تركيا يذهبون إلى بلادهم ويعودون من دون أيّ عقبات. ويرى فيزي أوغلو أن الحلّ يكون باتفاق مع الدولة السورية لا مع أوروبا أو أميركا: «نحن وليس أميركا، باقون هنا في هذه الجغرافيا، وليس مَن هو بعيد عنّا عشرة آلاف كيلومتر».

يعتبر الأكراد أن ما جرى جزء من مخططات الفوضى التي يُراد تعميمها في البلاد (أ ف ب)

مقالة

المتحوّر الاستعماريّ في البحرين

نادر المتروك

خرجت البحرين من الإطار الاستعماري البريطاني في العصر الحديث، وتحديداً في 15 آب من عام 1971، وفق السردية التي تحكيها الوثائق المتاحة. كان يفترض أن يشكّل ذلك انفكاكاً عن طوق الاستخدام والهيمنة الطويل الذي فرضه البريطانيون، ولا سيما مع بلوغ المجتمع المحلي مستوى عالياً من التحصيل التعليمي، بما يعنيه ذلك من تهيّؤ شعبي ذاتي لتولّي مهامّ بناء الدولة المستقلة.

بين عام 1971، حيث تأريخ الاستقلال المحاط بالجدل، وعام 2002، تاريخ إعلان الملكية الاستبدادية في البحرين، تفنّن البريطانيون في تجريب أدوات إعادة التموضع وتكريره، بلا سقوف أو محرّمات، وبما يُبقيهم القوّة التي تمسك بكلّ أوراق اللعبة، على رغم انزياح التاج البريطاني ودرّاته، وتآكل حدود الإمبراطورية العظمى لمصلحة الأميركيين تارة، والتجاذبات الإقليمية تارة أخرى. لم يكن تجدُّد السطوع البريطاني في البحرين، مأموناً من العقوق والعقبات، إلّا أن المخزون المتراكم أسعف الإنكليز على التستّر والابتكار، وكانوا ناجحين في حدود كبيرة، على نحو ما تُصوّره مناورة الانسحاب من الخليج، في نهاية الستينيات، تماشياً مع المصالح البريطانية الداخلية، وتحت ظلال الاتفاقات السرية، وعلى إيقاع «النوستالجيا» الاستعمارية التي عبّرت عنها العودة البريطانية إلى الخليج، بعد أربعين عاماً، على طبق القاعدة البحرية البريطانية «إتش إم إس» في البحرين، التي تمّ الاتفاق عليها عام 2014، وأُسدل الستار عنها بعد نحو ثلاثة أعوام. لم تتوقّف حجارة المحرق والمنامة عن الانهمار على البريطانيين، وهم أدركوا منذ زمن أن الشعب البحريني لا يمكن فكّ الحصار عنه، إلّا بحدود ما يعزّز احتياجات الكولونياليات المعاصرة، ولذلك لم يكفّ الاستعمار البريطاني، منذ زمن، عن إعاقة البحرينيين، وإشغالهم في الهوامش أو في الخوانم غير المنجزة، واستدراجهم نحو الإحالة المرجعية على محطّات الصراع، وعلى مناسبات تجرفهم جرفاً في منحدر الانقطاع عن خبرة الزمن، والتقطيع الداخلي. فعل المستعمر البريطانيّ ذلك كله، مراراً وتكراراً، عبر برامج متنوعة في التفكيك والتشطير، وإخفاء رموز النضال الوطني، مع ترفيع مبرمج لمثيري الفتن والشواغل المجندة.

مهارات الإنكليز واجتهادات البحرينيين

كان يمكن أن يجري ذلك بإتقان دموي يشبه إبادة الهنود الحمر، لولا عادة النهوض المتكرّر والإزعاج حتى الرمق الأخير، والتي داوم عليها شعب البحرين ونخبه الدينية والوطنية. ثمّة إعلام ومجتمع مدني في الغرب يراوحان خارج منظومة السيطرة، وهناك أعضاء برلمان يشغلهم ضميرهم قبل الخلود إلى النوم أو احتساء الشاي السيلاني. في هذه التربة، يكافح بحرينيون على أرض بريطانيا، ابتداء من الرعيل الأول الذي افتتحه سعيد الشهابي، عام 1971، وصولاً إلى جهود واجتهادات الجيل الجديد، على طريقة أحمد الوداعي في ولوج دهاليز «المملكة العظمى»، أو على طريقة موسى عبد علي وعلي مشيمع في احتلال مباني السفارات وافتراش الشوارع. ولكن، وعداً عقيدة الالتحاق ببريطانيا – التي تتنافس فيها مشيخات الخليج، على رغم تفوّق آل خليفة - فقد استثمر الإنكليز كل الفرص، واعتبروا كل شيء - مهما بلغ في التعقيد أو التحلّل - بمثابة مواد خام قابلة لإعادة التسييل والتدوير، وضبْط المصنع إذا اقتضى الأمر. يفسّر ذلك، في العمق، جانباً من نجاحات الإنكليز في الدخول والخروج، بفضل وفرة الحيل الذكية في تنفيذ تكتيكات الشدّ والجذب. يتلخّص شيء من ذلك في بناء العلاقات وفكّها، مع الأنظمة والمعارضات على حدّ سواء، وقد تميّز البريطانيون في أذكى توظيف لهذه المهارات في الخليج، على النحو النموذجي الذي حصل مع العصب العُماني في ثورة ظفار. بعد توليف مخرج بريطاني آمن من تلك الأحداث، يجمع بين حيلة التخلّص من تركة ثقيلة تجاوزت صلاحيتها، وإبرام صكوك مستحدثة لتمرير الاستقواء الاستعماري عبر واجهة محلية مضمونة الولاء. فلماذا لا يسأم البريطانيون عن إشعارنا بأنهم على ما يرام، وأن مستعمراتهم، ما ظهر منها وما بطن، لن تغمرها ما وراء البحار وحيتانها؟

> قدّمت الخبرة البريطانية لنظام البحرين معالجات وتدريبات عديدةً لتحسين أوضاع السجون

ولي العهد البحريني والمشاكلة الأميركية

عندما حلّ وليّ العهد البحريني، سلمان بن حمد آل خليفة، في لندن، في شهر حزيران الماضي، كانت «كورونا»، وليس الضّباب، تُخفي أموراً ما وراء الزيارة. يطير سلمان بن حمد على جناحَين عريضَين، بعدما مكّنته رئاسة الحكومة، إلى جانب ولاية العهد، من ملفّات السياسة والاقتصاد، أي الداخل والخارج، ما يعني أنه بات مؤهّلاً لشقّ الطرق وترميم النفوس والخروج على لعبة «الأجنحة المتصارعة» في بيت الحكم، على أمل تهيئة أفضل الأجواء للحظة التتويج المرتقب على العرش. والبريطانيون، وليس غيرهم، معنيون بترتيب مقدّمات هذه المراسيم ونتائجها، وفق تعاليم الضابط الاستعماري جون بيتس، وخبرات «سكوتلاند يارد»، ومرجعيات «سانت هيرست». إلّا أن رئيس الحكومة البريطانية، بوريس جونسون، لم يكن يهرّه أن يوصف بأنه «بلا أخلاق» بسبب لقاء سلمان بن حمد، لأن اللورد بو سكريفن وأمثاله يعرفون أن حكومة بلادهم معنية، أولاً وأخيراً، بالصفقات التجارية واستملاك الشيوخ، ولا يشغلها حقوق الإنسان ولا الرطانة في الالتزامات، إلّا بما له صلة باتفاقات الحماية وتسيير الانتدابات. ولكن المتغيّر الطارئ، هو أن ذلك لا يتباعد عن مسار التداخل الأميركي، في عهد جو بايدن، الذي لا يُخفي الرغبة في استعمال أدوات ضبط جديدة في منطقة الخليج، وتعويماً لخطاب باراك أوباما على منصة الأمم المتحدة في أيلول 2013، ولكن باندفاع أقلّ. إلّا أن مرحلة ما بعد جمال خاشقجي تتطلّب شكلاً آخر في الشاكلة الأميركية التي لا تستثني البريطانيين، حيث المنازعة هنا ليست على قائمة عريقة من الميراث البريطاني المثقل بالانتهاكات وحماية الطغاة، وإنما على تفريج الساحات المحاطة والمحاصرة بالرياض، وبما يريح الديمقراطيين في البيت الأبيض، ولا يفجّر حماقات أخرى من السعودية. يبدو، في هذا المصبّ، ملف البحرين منزوياً في ملاحق أجندة التفاوض، ولكنه غير غائب عن الطاولات التي يتداول فيها كبار الإقليميين الخرائط المقبلة وسيناريوات الحلول الممكنة. فماذا سيفعل البريطانيون؟

إخلاء السجون وإبقاء الاستبداد

يعرف الإنكليز أن السجون يمكن أن تكون بوابة الحلول، ولكن بالنسبة إلى البحرين، لا يجب أن يكون الأمر على منوال إيرلندا أو جنوب أفريقيا. قدّمت الخبرة البريطانية لنظام البحرين معالجات وتدريبات عديدةً لتحسين أوضاع السجون، وأفلح ذلك في تحقيق أكثر من هدفٍ مزدوج، بما في ذلك تخفيف وطأة الانتقادات، والمباعدة بين المعارضين، واختطاف أجزاء غير قليلة من الشارع المحلي. إلّا أن الرؤية البريطانية للحلّ في البحرين لا تتجاوز جدران السجون، إلّا في نطاق محدود، وبما لا يؤثّر على بنية الحكم المطلق في البلاد. وفي حين أن الإفراجات وفق قانون العقوبات البديلة، وبرامج أخرى، يمكن أن توفّر إراحة جانبية مؤقتة؛ فإن الأميركيين يسعون إلى توسيع الدائرة قليلاً، ليس في اتجاه الفرج الكبير، وإنّما الانفراج الذي يتلاءم مع مستلزمات التفاوض على الملفات الأخرى في المنطقة، وهو ما قد يعني إخلاء السجون، والإبقاء، على الاستبداد المقنّن. ما يجتهد فيه البريطانيون، وفق التناصح الأميركي، هو في هذه الدائرة تحديداً، وعلى مسافة غير بعيدة من «شائعة» الوفود البحرينية، الأمنية وغير الأمنية، التي تروح وتجيء على طهران. من تلك الدائرة ونظائرها، ينبغي التأمّل كثيراً في البيانات الأخيرة لآية الله، الشيخ عيسى قاسم، في شأن الحقّ السياسي والحلّ الدستوري، وإطالة النظر أكثر في المآلات المفتوحة للعصيان داخل سجون البحرين، وما إذا كان سيُفضي ذلك إلى «سجون مفتوحة» على هوى البريطانيين، أم إلى شيء آخر يشبه ما جرى بعد أحداث السجن في عام 2010 ومهّد لانطلاق أكبر ثورة في تاريخ البحرين.

إعلانات رسمية

إعلان
تعلن كهرباء لبنان عن رغبتها في إجراء استدراج عروض لشراء كمية من مادة الرغوة (Foam) لزوم نظام الحريق في معمل الذوق الحراري.
يمكن للراغبين في الاشتراك باستدراج العروض المذكور اعلاه الحصول على نسخة من دفتر الشروط من مصلحة الديوان ـ امانة السر ـ في الغرفة المسبقة الصنع رقم 38 المستحدثة في الجهة الغربية من المبنى المركزي لمؤسسة كهرباء لبنان ضمن حرمه، مبنى كهرباء لبنان – طريق النهر وذلك لقاء مبلغ قدره /000 50/ل.ل.
تسلم العروض باليد إلى امانة سر كهرباء لبنان ـ في الغرفة المسبقة الصنع رقم 38 المستحدثة في الجهة الغربية من المبنى المركزي لمؤسسة كهرباء لبنان ضمن حرمه.
علماً إن آخر موعد لتقديم العروض هو نهار الجمعة الواقع في 2021/9/17 عند نهاية الدوام الرسمي الساعة 11,00.
بيروت في 2021/8/3
بتفويض من المدير العام
مدير الشؤون المشتركة بالإنابة
المهندس واصف حنيني
التكليف 653

إعلان
تعلن كهرباء لبنان بأن مهلة تقديم العروض لشراء مبردين يعملان على الهواء لزوم تبريد مياه التبريد الخاص بمحطة الهيدروجين في معمل الذوق الحراري، موضوع استدراج العروض رقم ث4ر/1937 تاريخ 2021/5/7، قد مددت لغاية يوم الجمعة 2021/9/17 عند نهاية الدوام الرسمي الساعة 11:00 قبل الظهر.
يمكن للراغبين في الاشتراك باستدراج العروض المذكور اعلاه الحصول على نسخة من دفتر الشروط من مصلحة الديوان ـ امانة السر ـ في الغرفة المسبقة الصنع رقم 38 المستحدثة في الجهة الغربية من المبنى المركزي لمؤسسة كهرباء لبنان ضمن حرمه، مبنى كهرباء لبنان – طريق النهر وذلك لقاء مبلغ قدره /000 50/ل.ل.
علماً بأن العروض التي سبق وتقدم بها بعض الموردين لا تزال سارية المفعول ومن الممكن في مطلق الاحوال تقديم عروض جديدة افضل للمؤسسة.
تسلم العروض باليد الى أمانة سر كهرباء لبنان ـ في الغرفة المسبقة الصنع رقم 38 المستحدثة في الجهة الغربية من المبنى المركزي لمؤسسة كهرباء لبنان ضمن حرمه.
بيروت في 2021/8/3
بتفويض من المدير العام
مدير الشؤون المشتركة بالإنابة
المهندس واصف حنيني
التكليف 658

إعلان
تعلن كهرباء لبنان بأن مهلة تقديم العروض لتصليح محولات قدرة BT/MT، موضوع استدراج العروض رقم ث4ر/7972 تاريخ 2020/12/31، قد مددت لغاية يوم الجمعة 2021/9/17 عند نهاية الدوام الرسمي الساعة 11:00 قبل الظهر.
يمكن للراغبين في الاشتراك باستدراج العروض المذكور اعلاه الحصول على نسخة من دفتر الشروط من مصلحة الديوان ـ امانة السر ـ في الغرفة المسبقة الصنع رقم 38 المستحدثة في الجهة الغربية من المبنى المركزي لمؤسسة كهرباء لبنان ضمن حرمه، مبنى كهرباء لبنان – طريق النهر وذلك لقاء مبلغ قدره /000 300/ل.ل.
علماً بأن العروض التي سبق وتقدم بها بعض الموردين لا تزال سارية المفعول ومن الممكن في مطلق الاحوال تقديم عروض جديدة افضل للمؤسسة.
تسلم العروض باليد الى أمانة سر كهرباء لبنان ـ في الغرفة المسبقة الصنع رقم 38 المستحدثة في الجهة الغربية من المبنى المركزي لمؤسسة كهرباء لبنان ضمن حرمه.
بيروت في 2021/8/3
بتفويض من المدير العام
مدير الشؤون المشتركة بالإنابة
المهندس واصف حنيني
التكليف 660

www.al-akhbar.com
إشتراكات
إعلانات رسمية ومبوبة
وفيات
الأخبار al-akhbar
هاتف 01-759500
واتساب 71-513571
فاكس 01-759597

استراحة

كلمات متقاطعة 3810

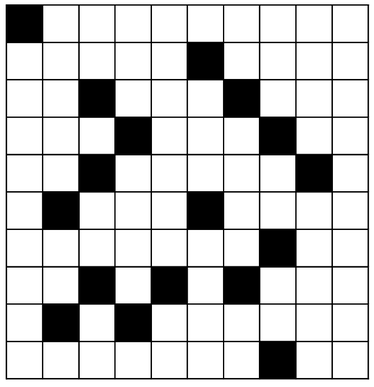

أفقيا

1- شخصية لبنانية زمن الأمير بشير الشهابي الثاني إشتهرت بالبلاهة – 2- دواء الجرح – أكياس رمل في زمن الحروب – 3- يمشي على اليدين والرجلين كالطفل – كفر حين نطق – بواسطتي – 4- صات الضفدع – خان العهد – انقطع عن الطعام – 5- دولة عربية – عاصفة بحرية – 6- ماركة سيارات – والدي – 7- فك العقدة – ولاية أميركية – 8- رجاء – وضع خلسة – 9- جمهورية ألمانية سلمّت السلطة لهتلر – 10- فيء الشجر – خضوع دولة لحكم دولة أخرى

عمودياً

1- رئيس حكومة لبناني راحل – 2- قطع كروية صغيرة في أسلحة الصيد – النقود – 3- أعطى من دون مقابل – آمر فظيع – خاصتي – 4- طائر مائي – صبي – إسم موصول – 5- من الحيوانات – من أسماء الذئب – 6- مدينة سودانية – خنزير برّي – 7- نزع الريش عن الطائر – نقطع – 8- مقياس مساحة – للنداء – مدينة إيرانية – 9- دولة أسيوية – نظير – 10- مخرج لبناني راحل

حلول الشبكة السابقة

أفقيا

1- مغارة – كينا – 2- وديع – كابول – 3- نرد – تنفي – 4- رهان – أردين – 5- هامر – 6- أروبا – قماش – 7- لو – وجار – لا – 8- بصل – شمندر – 9- شيرين – وي – 10- قرد – الدوحة

عمودياً

1- مونريال – شق – 2- غدره – روبير – 3- ايداهو – صرد – 4- رع – نابولي – 5- ماج – نا – 6- كنار – اش – 7- كافر – قرميد – 8- يبيدهم – 9- نو – الدوح – 10- الإنكشارية

sudoku 3810

	6	4		7			9	2
	1			5			8	
9	8					7	4	
		3		1		8		
	5	7		2		1	6	
		6		9		4		
	4	9					1	3
				3				
5	3			4		9	7	

شروط اللعبة

هذه الشبكة مكوّنة من 9 مربعات كبيرة وكل مربع كبير مقسّم إلى 9 خانات صغيرة. من شروط اللعبة وضع الأرقام من 1 إلى 9 ضمن الخانات بحيث لا يتكرر الرقم في كل مربع كبير وفي كل خط أفقي أو عمودي.

حل الشبكة 3809

6	9	7	4	2	1	5	8	3
5	8	2	7	3	6	9	1	4
3	4	1	9	8	5	6	2	7
2	3	8	6	5	7	4	9	1
1	6	9	8	4	2	3	7	5
7	5	4	3	1	9	2	6	8
9	2	5	1	7	3	8	4	6
4	1	3	2	6	8	7	5	9
8	7	6	5	9	4	1	3	2

مشاهير 3810

11	10	9	8	7	6	5	4	3	2	1

قائد وسياسي وعسكري صيني (1887-1975) حارب الجيش الأحمر الشيوعي وأجبره على الإنسحاب بما يُعرف بالمسيرة الطويلة. أسس دولة تايوان وحكمها حتى وفاته

6+8+4+5 = ملك بالإجنبية ■ 1+2+3+9+10+7 = رقصة كوبية شهيرة ■ 11+8 = حرف نصب

حل الشبكة الماضية: فولك برنادوت

إعداد
نعوم مسعود

الأخبار
al-akhbar
السبت 14 آب 2021 العدد 4413

صورة وخبر

كأنّها تكافح من أجل البقاء في مواجهة الاندثار. تقف صناعة الفخار في اليمن شاهدةً على عصور تاريخية لعبت فيها دور البطولة في تشكيلات الأواني والتماثيل قبل حلول الماكينات التكنولوجيّة. ولا تكاد تذكر صناعة الفخار اليمنية العائدة إلى آلاف السنوات، إلّا مقرونة بمدن حيس وزبيد والجراحي وبيت الفقيه في إقليم تهامة جنوب مدينة الحديدة، تليها مناطق عدّة في محافظة حضرموت والعاصمة صنعاء. تواجه هذه الصناعة اليوم جملةً من التحديات، أبرزها الركود الشديد في رواجها جراء تدهور الأوضاع الاقتصادية والمعيشية طوال سنوات الحرب والحصار. (محمد حمود ــ الأناضول)

موسيقى غربية تملأ ليل الأشرفية

تضرب فرقة I-WAH بالإشتراك مع ثنائي The Hornigs موعداً مع الجمهور، بعد غدٍ الاثنين، في «أونوماتوبيا ـ الملتقى الموسيقي» (السيوفي ـ الأشرفية)، يقدّمون حفلة تدور في فلك الموسيقى الغربية، على أن يحتوي البرنامج أعمالاً مستعادة وأخرى أصلية. هكذا، سيصعد على المسرح كلّ من: طوم هورينغ (ساكسوفون)، لين هورينغ (غناء)، نضال غنّام (غيتار)، رامي أبو خليل (كيبورد)، عبدو صوما (دارمز) وشربل صوما (باص). وكما بات معلوماً، يعود ريع هذه الحفلة لدعم برنامج «أونوماتوبيا» لتطوير المهارات الموسيقية.

الاثنين 16 آب (أغسطس) الحالي ـ الساعة السابعة والنصف مساءً ـ «أونوماتوبيا ـ الملتقى الموسيقي» (السيوفي ـ الأشرفية). الدخول مجاني. للاستعلام: 01/398986

روك وبوب مع Postcards

بعد فترة من الانقطاع في ظلّ الحجر الصحي الذي فرضته جائحة كورونا، تنشط Postcards (الصورة) أخيراً على صعيد المواعيد الفنية في فضاءات مختلفة. في 25 آب (أغسطس) الحالي، تحطّ الفرقة اللبنانية في «مترو المدينة» (الحمرا). الفرقة التي تأسست عام 2012، اشتهرت بأداء أغنيات روك شعبي وبوب من بريطانيا والولايات المتحدة، وتضم: جوليا صبرا (غيتار ـ Synths ـ غناء) ومروان طعمة (غيتار ـ باص ـ غناء) وباسكال سمرجيان (درامز/ سامبلر ـ غناء). في رصيد الفرقة ألبومات عدّة من بينها Lakehouse و What Lies So Still.

حفلة Postcards: الأربعاء 25 آب ـ الساعة التاسعة والنصف مساءً ـ «مترو المدينة» (الحمرا ـ بيروت). للاستعلام: 76/309363

«فلسفة الهوية»... ندوة على النت

يوم الخميس المقبل، يدعو «مركز خليل السكاكيني الثقافي» و«مركز الأبحاث الفلسطيني» إلى حضور الندوة الافتراضية الأولى في سياق سلسلة «إعادة قراءة الهوية في السياق الاستعماري»، بعنوان «فلسفة الهوية ا تأطير نظري عام». يتولّى مهمّة تقديم الموعد المرتقب عبر منصة «زوم» أستاذ علم الاجتماع ورئيس قسم علم الاجتماع والأنثربولوجيا والدراسات الإعلامية في «الجامعة الأميركية في بيروت» ساري حنفي (الصورة)، على أن تديره الأستاذة المساعدة في «جامعة النجاح» الوطنية ومنسّقة برنامج ماجستير دراسات المرأة سماح صالح. تطرح السلسلة سؤال الهوية في «نطاقه الاستعماري العريض، ويحاول التصدّي لأشكلة الهوية من النواحي الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية»، وفق ما يرد على الصفحة الخاصة بها على فايسبوك. ويسعى المشروع لتحقيق «أكبر قدر من التفاعل بين المكوّنات الاجتماعية للهوية الوطنية بهدف ربطها لوضع محددات لمشروع ثقافي هوياتي جامع». علماً بأنّ السلسلة تأتي في وقت شهدت فيه العقود الأخيرة تصاعداً في سؤال الهوية وارتباطه بمشروع التحرّر الوطني الفلسطيني، فشكّلت التحوّلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الدولية والإقليمية والمحلية تحدياً، كما أثّرت سياسات الاحتلال الإسرائيلي سلباً على بناء واستجابة الهوية لتحدياتها.

ندوة «فلسفة الهوية ا تأطير نظري عام»: الخميس 19 آب (أغسطس) الحالي ـ الساعة السابعة مساءً بتوقيت بيروت ـ منصة «زوم» (رابط التسجيل متوافر على موقعنا).

مكادي نحاس: «لوين رايحين؟»

بالشراكة مع «مقام للإنتاج الفني» و«أراتوك»، يستضيف مهرجان «سطوح الوصل» الفنانة الأردنية مكادي نحاس (1977 ـ الصورة) في ليلة غنائية بعنوان «لوين رايحين؟». يوم الجمعة المقبل، تعود ابنة المناضل والأديب سالم نحّاس ومدينة مادبا إلى لبنان بعد غياب استمرّ لوقت طويل، لتقدّم باقة من أغانيها لجمهور حيّ في «استديو لبن»، وللمتابعين عبر الشبكة العنكبوتية. وهي التي أطلقت مسيرتها الفنية قبل سنوات من العاصمة اللبنانية. علماً بأنّ دورة 2021 من المهرجان السنوي الذي تقيمه «جمعيّة لبن»، مستمرة لغاية 31 آب (أغسطس) الحالي ببرنامج منوّع.

«لوين رايحين؟»: الجمعة 20 آب ـ الساعة التاسعة مساءً ـ «استديو لبن» (سطح مبنى «زيكو هاوس» ـ الحمرا/ بيروت) ومباشرةً عبر موقع «أراتوك».

الأخبار
al-akhbar

السبت 14 آب 2021
العدد 4413 السنة السادسة عشرة
Samedi 14 Août 2021 nº 4413 16ème année

كلمات

ملحق
أسبوعي
www.al-akhbar.com

إبراهيم عبد المجيد
الهروب من الذاكرة

ليست «الهروب من الذاكرة» مثل سابقتها، ثلاثية الإسكندرية (1996، 2000، 2013)، التي تطلّبت من إبراهيم عبد المجيد (1947) 15 عاماً لكتابتها. ثلاثيّته الجديدة التي صدرت في كتاب واحد عن «منشورات المتوسّط» ضمن فعاليات الدورة 52 لـ «معرض القاهرة الدولي للكتاب» أخيراً ، تعيد الروائي المصري بعد عام على نشر روايته الأخيرة «العابرة» التي تنقّلت بين هويّتين جندريتين للبطل/ البطلة. بعدما لبث سرديّاً لسنوات في مدينته الإسكندريّة، متجوّلاً بين أزمنتها وحكاياتها، رجع عبد المجيد إلى القاهرة كتابةً، وتحديداً إلى ميدان التحرير الذي سجّل فيه يوميات الشبان والثوّار في كتابه «لكل أرض ميلاد ـ أيام التحرير» (2011) ثم تبعتها روايات عدّة ظلّت تقيم في العاصمة المصريّة.

هذه المرّة يبني فصول ثلاثيّته بين القاهرة والصحراء. غير أن هذين المكانين، تسوّرهما جدران السجن، وذاكرته المثقلة. تضمّ «الهروب من الذاكرة» ثلاثة عناوين فرعيّة هي «العائد إلى البيت في المساء»، و«طريقان للهروب»، و«لأن في الدنيا نساء»، هي أشبه بروايات قصيرة منفردة، تترابط فيما بينها بوقائع غرائبية. الروائي والقاصّ الذي دأب على تفتيت رواياته إلى ما يشبه القصص القصيرة، أي الخلفية التي جاء منها، يتتبّع بطله بعدما يتعرّض إلى السجن عن طريق الخطأ. تبدو أحداث الرواية محاكاة درامية وخيالية، للتجربة الجماعية للسجون في مصر، إلّا أن ثمّة ملامح مستلهمة من تجربة الكاتب الفرديّة مع السجن. ذات ليلة من شتاء سنة 1985، اعتُقل عبد المجيد مع كتّاب آخرين بسبب احتجاجهم على مشاركة إسرائيل في المعرض الصناعي الزراعي. يتخلّى عبد المجيد عن الطرق التقريرية في الكتابة عن القضايا السياسيّة في بلاده. لا بدّ للخيال أن يخرج ببدائل واستعارات سرديّة عن حال البلدان العربية ومصر. أسلوب اتّبعه عبد المجيد منذ ابتعاده عن الأحزاب الشيوعيّة السريّة بداية الثمانينيات التي كان قد انخرط فيها، مستبدلاً الأيديولوجيا بالفانتازيا. هناك شهداء في رواياته، لكنهم شهداء لا يستسلمون لمصيرهم تماماً. يستفيقون من موتهم ليملأوا الجدران بالغرافيتي كما في روايته «قبل أن أنسى أنني كنت هنا» (2018). كذلك في رواية «قطط العام الفائت» (2017) التي أصدرها بالتزامن مع ذكرى ثورة يناير. نزل حينها إلى الميدان، ليجعل من أبطال قصّته قططاً تهدّد الأمن، وحاكم بلاد «لاوند». وبالعودة إلى ثلاثيّته الأحدث، فإنّ عبد المجيد يلجأ إلى سرد غرائبي يخلخل المسلّمات وسطوة الواقع على السواء، فيمنح أبطاله سبلًا عدّة للتخلّص من ذكرى الأيام المثقلة في السجن. يخوض في الحالات النفسية التي تتمكّن من المساجين حتى بعد انقضاء تجربة الاعتقال مثل عقدة ستوكهولم التي تخلق شعوراً بتعلّق السجين بسجّانه. وأمام الخيارات الكثيرة التي تتراءى للبطل، يجد طريقته المثلى للتخفّف من ذاكرته بالإقدام على مشروع بناء منزل يصله بالسماء، التي تبدو أبعد من أيّ وقت مضى.

ملف

خورخي بورخيس وأرنستو ساباتو... صيادان يطاردان فرائس مختلفة

بعد قطيعة طويلة بينهما لخلافات إيديولوجية، تمكّن الصحافي أورلاندو باروت أن يجمع بين قطبَي الكتابة في الأرجنتين: خورخي بورخيس (1899- 1986)، وأرنستو ساباتو (1911- 2011). سبع جلسات شهدتها أماكن مختلفة في بوينس أيرس، تحاورا خلالها في شؤون مختلفة: القصة والرواية، الحلم، اللغة، النسيان، الموت. وبالطبع رواية سرفانتس «دون كيخوته». سيعترف بورخيس بأنه لم يكن متحمساً لأيقونة السرد الإسباني، لكنه أُعجب بالرواية لاحقاً. أمرٌ أبهج أرنستو ساباتو بوصفه أحد ورثة سرفانتس. مُنع كتاب الحوارات الذي صدر منتصف سبعينيات القرن المنصرم طويلاً، قبل أن يُفرج عنه في العام 1996، مع انتهاء حقبة الديكتاتورية. عوقب بورخيس لموقفه المضاد للجنرال خوان دومينغو بيرون، بنقله من عمله في المكتبة الوطنية إلى وظيفة مفتّش للدواجن في الأسواق. سينظر بورخيس إلى هذه الإهانة كذكرى عابرة، فيما سيمحو ساباتو ما كتبه عن «العمى الأخلاقي» ردّاً على مقالٍ لبورخيس. في سلسلة حواراتهما، ستتراجع نسبة الخلافات بين صاحب «كتاب الرمل»، وصاحب روايات «النّفق»، و«أبطال وقبور»، و«ملاك الجحيم»، فيما سينهمك أورلاندو باروت بصلاحيّة آلة التسجيل. إلى درجة أنه سوف ينسب كلام الأوّل للثاني وبالعكس. وفقاً لملاحظة ماريا كودا ما أرملة بورخيس ووريثته الشرعية. شُجّلت هذه الحوارات أيام السبت من كل أسبوع إلى أن أغلق الكاتبان القوس على سجالاتهما وإجاباتهما المرتجلة عن أسئلة جوهريّة تتعلّق بالأدب في المقام الأول، ما جعلها تشكّل اليوم مرجعاً نقدياً ملهماً. يقول ساباتو: «الحلم يقي المرء من أن يصبح مجنوناً في الحياة اليومية، فيما يفيد الفن في إنقاذ الآخرين من الجنون». ويرصد بورخيس فكرة الموت بقوله: «لا نعرف أننا متنا حتى نتأكد في أن المرأة لا تعكسنا. أنا لا أرى المرآة». جرعةٌ إضافية من الأفكار تستدرج «الصديقين» إلى خرائط الكتابة المفتوحة على احتمالات لا تُحصى. سوف ينكر بورخيس معرفته بأدب أميركا اللاتينية متجاهلاً عشرات الروايات المؤثرة بما فيها روايات ساباتو نفسه. وسيعلن الأخير بأنّ «سقراط فيلسوف مقهى لا أكثر» قبل أن يلخّص صورة بورخيس بقوله «إليكم، بورخيس، هرطقة ضاحية بوينس أيرس، مجموع أمناء مكتبات أقنوم غير محدود، مزيج نادر من آسيا الصغرى، وباليرمو، ومن كافكا، ومارتن فييرو، تعسّفي، عظيم، صائم ساعات، ضعيف، منتصر، مجازف، خائف، فاشل، رائع». من جهته، سعى أورلاندو باروت إلى تبديد لحظات الصمت بسؤال أو اقتراح أو رأي. كما سيمهّد لهذه الأمسيات بمقدمات توضح تطوّر لعبة الشطرنج الأدبية بين اللاعبين. هنا مقاطع من الكتاب الذي قام بترجمته إلى العربية عبد السلام عقيل، وسيصدر قريباً عن «دار نينوى» في دمشق.

تقديم واختيار **خليل صويلح**

■ محاولة للتذكّر

بورخيس: متى تعارفنا؟ دعنا نرى. لقد فقدت القدرة على حساب السنين. ولكن أعتقد أن ذلك كان في بيت بيوي كاساريس حين صدر كتابك «الفرد والكون».

ساباتو: لا، يا بورخيس. صدر ذلك الكتاب في العام 1945، ونحن تعارفنا في العام 1940.

بورخيس: (يفكر) نعم، يا تلك الاجتماعات! كان بوسعنا أن نخوض طيلة الليل في الحديث عن الأدب والفلسفة، كان ذلك العالم مختلفاً.

ساباتو: أودّ أن أقول، كنّا، بالأحرى نتحدث في تلك الاجتماعات عن المشترك الذي يستهوينا، أنت، وبيوي، وسيلفينا، وأنا. أعني الأدب، والموسيقى، لأن السياسة لم تكن تهمنا. أنا على الأقل.

بورخيس: أعني يا ساباتو أننا لم نكن نهتم كثيراً بالأخبار اليومية العابرة.

ساباتو: نعم، حقاً، كنا نتناول موضوعات تتسم بالديمومة. أما الأخبار اليومية، فهي بصورة عامة، غالباً ما تذروها الرياح. سواء الجديد منها الذي تكتبه الصحف، أو القديم، كله يذهب هباءً في اليوم التالي.

بورخيس: طبعاً. لا يفكر أحدٌ بأنه يجب أن يتذكر ما هو مكتوب في جريدة. أقول، ما يُكتب في جريدة، يُكتب لكي ينسى، يكتب عن عمد لكي يُنسى.

ساباتو: لعله سيكون من الأفضل نشر جريدة كل سنة أو كل قرن. أو عندما يحدث شيء يتسم بالأهمية حقاً كأن يتصدر الجريدة عنوان على ثمانية أعمدة كالتالي: «ها قد اكتشف السيد كريستوفر كولومبوس، أميركا».

بورخيس: (مبتسماً) نعم... أعتقد ذلك.

ساباتو: كيف يمكن أن تقع أحداث فائقة الأهمية كل يوم؟

بورخيس: فضلاً عن ذلك، لا يعرف أحد مسبقاً ما هي؟ اكتسب صلب المسيح أهمية في ما بعد، وليس في حينه، عندما حدث. ولذلك فإنني لم أقرأ أي جريدة قط، متّبعاً نصيحة إمرسون.

ساباتو: مَنْ.

بورخيس: إمرسون، الذي كان ينصح بقراءة الكتب، لا الجرائد.

بارون: أستميحكما العذر. وفي ذلك الحين عندما كنتم تجتمعون في بيت بيوي.

بورخيس: عجباً. إنك تشير إلى تلك الأيام كما لو أنها كانت حقبةً بعيدة جداً. (يبدو أنه يستحضرها) نعم، واضح، إنها وفق التسلسل الزمني بعيدة. ولكن، مع ذلك، أشعر بها وأفكر فيها كما لو أنها معاصرة. فضلاً عن أننا قلّما كنا نجتمع.

ساباتو: ليس للزمن وجود، أليس كذلك؟

بورخيس: أودّ أن أقول، كأنني ما زلت موجوداً عقلياً في تلك الحقبة، كما أن كوني أعمى يساعدني على ذلك.

تسود فترة صمت طويلة.

ساباتو: أتذكر يا بورخيس، فضلاً عن الأدب والفلسفة، أنه كان لديك أنت وبيوي، نزوع إلى الرياضيات، البعد الرابع، الزمن...

بورخيس (يضغط على العكاز بكلتا يديه، ويشمخ بحماسة تقريباً) عجباً! طبعاً، الأرقام التي لا نهاية لها.

ساباتو: العودة الأبدية، نيتشه...

بورخيس: وقبل قرون، الفيثاغورثيون، والرواقيون.

ساباتو: المفارقات، أخيل والسلحفاة. كنّا نتسلى جداً. أتذكر أيضاً أننا كنّا نتحدث كثيراً عن ستيفنسون والصمت، ما يسكت عنه، يكون أحياناً، أكثر أهمية من الذي يُعبر عنه. ولكن بهذه المناسبة يا بورخيس، أتذكر شيئاً أسترعى انتباهي منذ فترة في ترجمتك لرواية فيرجينيا وولف «أورلاندو».

بورخيس: (يبدو حزيناً) حسناً، ترجمتها أمي وأنا ساعدتها.

ساباتو: ولكن ظهر عليها اسمك، ما أريد قوله هو أنني وجدت جملتين، أضحكتاني، لأنهما «بورخيسيّتان»، أو هكذا بدتا لي. وأحدة عندما تقول تقريباً، إن والد أورلاندو كان قد بتر رؤوس الرجال «واسعي عدم الإخلاص». أما الثانية فهي، عندما عاد ذلك الكاتب إلى أورلاندو و«استنتج منه مسودة». بدت لي الجملتان أنهما شبيهتان جداً ببورخيس. وعندما راجعت الأصل، وجدت، إن لم تخنّي الذاكرة، أنه يقول شيئاً من قبيل: «قدم لها مسودة أولية».

بورخيس: (وهو يضحك)، حسناً، نعم، عجباً.

ساباتو: ليس في ذلك ما يضيرك. فهو يدلّل علي، أنه من الأفضل أن يتولى ترجمة أعمال المؤلف كاتب دقيق ومحايد، أليس كذلك؟

أتذكر أنني شاهدت منذ زمن طويل عرضاً لمسرحية «ماكبث». كانت الترجمة سيئة كما الممثلين أيضاً. ومن هناك خرجت إلى الشارع مجرّداً من المشاعر التي تثيرها فينا المسرحية التراجيدية. في هذا تغلّب شكسبير على مترجم مسرحياته.

■ هذيان قصير الأمد

حدث تغيير في مكان اللقاء هذه المرة. اجتمعنا في المقهى الذي يقع بين شارعي «مايبو» و«كوردبا». الجو حار في الخارج.

المناضد حولي خالية ووحيدة، وأنا كذلك أشعر بالوحدة، وحين يصلان، سأشعر أيضاً بأني وحيد. ها هما الآن بجانبي ويتحدثان، وبوسعي أن أراقبهما دون محظور. (الأفضل أن يكون المرء غير مرئي أحياناً).

أستبشر خيراً بحوار عميق وشامل. حوار صيادَين يطاردان فرائس مختلفة في أماكن مختلفة، ولذلك فإنهما لن يتجابها.

حين أنظر إليهما، أدرك أنهما خصمان، ولكن ليس خصومة مسارين، وإنما عالمَين مختلفين.

لن يكون بوسع بورخيس أبداً أن يكتب «مسالك الجحيم». وساباتو لن يكون بوسعه أبداً أن يكتب «الألف».

صمت الاثنان وانتظرا. ما الذي ينتظرانه؟ اقترحت عليهما الحديث عن موضوع الإبداع، والسبل المختلفة لإبداع الأدب. قلت لبورخيس، إن ساباتو اعترف مرات كثيرة، بأن الكتابة بالنسبة إليه تمزّقٌ.

بورخيس: كل شيء يحدث لي على الضد من ذلك: الكتابة مصدر ارتياح، تساعدني على نسيان ذاتي، أو ظروف حياتي. يكتب المرء تلك المواضيع التي تفرض نفسها. أنا لا أبحث عن الموضوع: أترك له أمر مطاردتي، يبحث عني وأنا عندئذٍ أكتبه. إنّ تخيّل قصة يشبه رؤية جزيرة من بعيد. أتبيّن نقطتين، البدء والنهاية. وما يجري بينهما يتعين عليّ أن أعمل على اختراعه واكتشافه، شيئاً فشيئاً. أخطئ مرّات عديدة. فأحذف صفحات، أو ما إن أنتهي من كتابتها حتى أنتبه إلى أنني يجب أن أضعها في مكان آخر. إن هذه العملية كلها تسعدني. الآن، على سبيل المثال، انتهيت من كتابة قصة، ولكني أعرف أنه ينقصها صفحة واحدة، لدي النهاية، ولكن أفتقد تلك الصفحة. (أدركت، من إيماءة بورخيس، أنّه الآن، يودّ كتابة تلك الصفحة).

بارون: يسود اعتقاد بأنّ الفارق بين الرواية والقصة القصيرة هو كالفارق بين هاجس طويل الأمد وآخر عابر.

بورخيس: صحيح، القصة القصيرة بمثابة حلم مقتضب، أو هذيان قصير الأمد.

ساباتو: أعتقد أن كلاهما، الرواية والقصة تتسمان بالتعقيد والصعوبة، ولكن على نحو مختلف. فالقصة يجب أن تقدّم للقارئ، فكرة كلية وشاعرية، بعبارات قليلة، ما يتطلب قدرة كبيرة على التركيز والإتقان.

بورخيس: هل تعني أن القصة القصيرة تكون مكثفة أكثر؟

ساباتو: نعم. الرواية بالمقابل، أشبه ما تكون بقارّة. يتعين فيها اجتياز مستنقعات أو أهوار واسعة، أو قطع طرقات طويلة وسط الغبار والطين للوصول في نهاية المطاف إلى مكان رائع. أعتقد أن بورخيس قال مرة إنه يشعر بالملل في تلك الطرقات القاحلة، فضلاً عن أنها لا بد أن تؤدي إلى أن يشعر القارئ بالضجر منها أيضاً. ولكن إذا أردت العثور على كنز في غابات الأمازون يجب أن تجابه كثيراً من المخاطر.

بورخيس: ولهذا يجب أن يشعر الكاتب بالرضى عندما يختتم روايته. وبالمقابل، لا يعرف كاتب القصة حين ينتهي من كتابة قصته، ما إذا كانت تستحق أن يكتبها.

ساباتو: ولكن يا بورخيس، شيء من هذا القبيل يحدث في الرواية، أو أسوأ منه: تخيّل ما يحدث إذا شعر الكاتب، بعد أن كتب خمسمئة صفحة، أنّ هذا ليس ما كان يريد قوله.

بورخيس: يمكن الحكم على القصة في جلسة واحدة، بينما تتطلب الرواية وقتاً.

ساباتو: الروايات العظيمة، وإن لم تكن مكتوبة بصيغة شعرية، فإنها تقدم دائماً تجليّاتٍ شعريّة عظيمة، يمكن للمرء أن يشعر بها لدى قراءة تولستوي وبروست أو فوكنر وفيرجينيا وولف. وفضلاً عن ذلك، أعتقد أن كل فنٍ، إما أن يرقى إلى مكانة الشعر بالمعنى الأعمق للكلمة، أو لا يكون أكثر من مجرد سجلّ أخبار صحافية أو أحداث طبيعية.

بورخيس: أتذكرُ جورج مور الذي كان يقول، لكي يمدح أحداً ما: «كان يكتب نثراً يكاد يكون كاتبه مجهول الهوية».

ساباتو: يودّي أن نناقش رواية الـ«كيخوته».

يستقر على الكرسي. ويركّز نظراته في وجه بورخيس، الذي يبدو أنه يتردد قليلاً قبل أن يبدأ الإجابة بإيقاع صوته البطيء.

بورخيس: أعتقد أنك تعلم يا ساباتو، أنني غيّرت رأيي كثيراً في «دون كيخوته».

ساباتو: (يبتسم بشيءٍ من الريبة) وما هو رأيك الآن؟

بورخيس: لا ينبغي لي أن أقوله، لا أحب أن أخضع للرقابة، ولكن بيوي كاسارس أثّر فيّ كثيراً: كان يحدثني عن ذلك الكتاب بازدراءٍ دائماً، والآن أدركت أنه كان مخطئاً. أعتقد أن سرفانتس ابتدع شخصيّة الونسو كيخانو الأدبية، التي لا يمكن أن تُنسى أبداً. وأعتقد أننا لكي نحكم عليه، يجب أن ننطلق من وجهات نظر أخرى. هناك واقعة أشار إليها كولريدج، يبدو لي أنها صحيحة تماماً: يقول إنّ مغامرات الـ«كيخوته» ليس لها كبير أهمية، يشعر القارئ أحياناً بالرغبة في إعادة قراءة فصل من فصول الرواية، وليس متابعة أحداثها أهمية لما سيحدث. لأننا في الواقع سنجد أنفسنا في موقف يتكرر، حالة فرد يعيش في عالم يومي، في عالم مبتذل يتناقض معه. ولكن تلك الشخصية شخصية مضحكة، وفي الوقت ذاته موضع احترام ومحبة أيضاً.

(هدأت أسارير ساباتو، وبدا جاداً ومسروراً أمام هذا البورخيس الذي اعترف له بإعجابه بسرفانتس. يواصل بورخيس حديثه).

بورخيس: أعتقد أنني كنتُ في حديثي الآن منصفاً، لأن هناك فترة كنت أعتقد فيها أن كيفيدو أفضل من سرفانتس. ربما كان كيفيدو أفضل كاتب صفحة فصفحة، وسطراً فسطراً. ولكنه إجمالاً أدنى إلى حد بعيد من سرفانتس، لأنه لم يستطع قط ابتكار شخصية مثل «دون كيخوته». لم يكن سرفانتس بحاجة إلى مهنية كيفيدو الأدبية، كان لديه الحدس والنبوغ، وهذا ما كان يفتقد إليه كيفيدو. ولذلك لم أكن من قبل منصفاً في الحكم على سرفانتس. والآن أود أن أعترف بأخطائي علناً. كذلك كنت أعتقد أنّ لوغونس يتفوق على روبن داريّو. إلا أنني أعرف الآن أن لوغونس يحتل مكانةً أشبه ما تكون بمكانة كيفيدو إذا ما قورن بسرفانتس. ومما لا ريب فيه أنه كان بوسع لوغونس تصحيح أي صفحة من صفحات داريّو، ولكنه لم يكن أهلاً لأن يكتب مثلها. هذا ما كان يمتاز به سرفانتس من تفوق على كيفيدو.

ساباتو: لا يفاجئني أبداً ما تقول يا بورخيس. أعتقد أن جذور رأيك الحالي تمتد إلى كتاباتك الأوّلية عن «دون كيخوته». قلتَ في أحد مقالاتك إن كيفيدو هو أكبر مهندسي فن اللغة. وأضفتَ مباشرة: «ولكن سرفانتس». «هكذا مع ثلاث نقاط توقّفٍ كئيبة. وفي عمل كتبتُه عنك قلتُ فيه، مثلما يوجد أكثر من قلوبير واحد، يوجد أيضاً أكثر من بورخيس واحد: الأول شديد الإعجاب بكيفيدو ، والآخر أشدّ عمقاً، يُكتشف في مواجهة سرفانتس. ولكنّ ثمة أمرٌ أريد جلاءه بدقّة وهو، ما يتعلّق بمشكلة الشكل ومشكلة المغامرات. إنّ رواية «دون كيخوته»، بالنسبة إليّ، تُعدّ عملاً أدبياً رائعاً، وواحداً من اثنين أو ثلاثة أعظم الأعمال الأدبية وأكثر نبوغاً، التي تم إنتاجها مدى العصور، لأن سرفانتس قال فيها ما كان ينبغي له أن يقول، وصاغها في الشكل الذي كان ينبغي له أن يصيغها فيه. ولذلك كنت أجد دائماً في ادعاء غروساك السخافة والغرور.

بورخيس: أنا أؤكد، نعم، إنّ الجزء الثاني يفوق الأول بجودته.

ساباتو: صحيح ما تقول. ولكن لنعد إلى كولريدج وتأكيده المضحك، الذي يقول فيه على ما أعتقد: «للأسف أنّ «دون كيخوته» لم يكتبها كاتب إنكليزي». ويلوم سرفانتس لأن تلك الشخصية تقوم بسلسلة من المغامرات التي يمكن الاستغناء عنها. ولكنني أعتقد أن دون كيخوته، إمّا أن تكون مجموعة تلك المغامرات، أو لا تكون شيئاً.

بورخيس: ولكن الشخصية أهم من الذي يحدث لها.

ساباتو: «الكيخوته» هو ما يحدث له، إنه مُعرّف كشخصية بما يحدث له، كما يمكن أن يقول «فينومينولوجي». صحيح أنّ الجزء الثاني يبدو متفوقاً على الأول بجودته. ربما يعود ذلك إلى أن سرفانتس كان يعاني، خلال الجزء الأول، من تأثير الوسط الأدبي الذي عاش فيه، حيث كان يدرك أنه كاتب من عامة الناس، ويريد أن يكتب عملاً أدبياً جيداً يضاهي أدب كيفيدو.

بورخيس: طبعاً. كان أولئك الناس يرون كتابة مجرد أحد الكتب الشعبية الأكثر رواجاً. وحين كتب غراسيان عنه في كتاب «الفطنة وفن النبوغ»، لم يأتِ على ذكر سرفانتس.

ساباتو: أصرُّ إذاً، على «الكتابة بشكل جيد». ماذا تعني «الكتابة بشكل جيد» في «دون كيخوته» إذا لم يكن ما كتبه سرفانتس كتابة جيدة؟ إذا كان قد أنجز عملاً أدبياً عظيماً ما زلنا حتى الآن نناقشه، فما ذلك إلا لأنه كتب بشكل جيد، وبأي طريقة. هذا، ومن ناحية أخرى، حتى لو سلّمنا بأنّ المغامرات أضرّت بالشخصية، من كان بوسعه أن يمنع أيّ كاتب آخر أفضل من سرفانتس، من المبادرة إلى إنجاز عمل عظيم أفضل؟ لم يُكتب قط، حتى الآن، عملٌ أفضل.

بورخيس: نعم. لم يُكتب قط. لأن «دون كيخوته» المنسوبة إلى أفيجانيدا التي لم أقرأها، يُفترض، كما قيل عنها، أنها ليست جيدة.

ساباتو: كان شكسبير يأخذ أفكاراً شوّه كتّاب مغمورون معالجتها ويكتب مآسيه العظيمة. وأود أن أسأل كولريدج: ما المانع الذي حال دون أن يكتب أيّ إنكليزي «دون كيخوته» التي شوهها سرفانتس؟

بورخيس: أتذكّرُ ذلك الجزء من الرواية عندما يسترد سانتشو حريته ويدرك أنها هي أفضل ما كان يفتقده، ويبدأ بتعداد سلسلة من الأشياء التي لم يحصل عليها من قبل قط.

(لاذا بالصمت مرةً أخرى، ولكن الأجواء كانت ودّية. وبينما كانوا يقدّمون لنا القهوة، كان ساباتو يتذكّر).

■ تفاحة سيزان وكافكا ودانتي

ساباتو: لا توجد قضايا كبيرة ولا قضايا صغيرة: يوجد كتّابٌ صغار وكتّاب كبار. يرسم الرّسام الفرنسي بول سيزان تفاحةً فيبدع عملاً لا يُنسى. ويرسم آخر، كائناً من كان، لوحة «الصلب» فتكون عملاً غريباً وسخيفاً. المنضدة الموجودة أمامنا، يمكن أن تكون، حسبما يراها من ينظر إليها، أغرب شيء في العالم. ولا شيء، ويمكن أن تعني لثالث، كالفيلسوف بيركلي، وضع الواقع كلّه موضع الشك. هناك طبعاً كثيرون لا يتصوّرون أنّه يمكنهم الكتابة دون السّفر حول العالم. ولكن، في عصر هوميروس لم يكن هناك طائرات، وبالقوارب والمجاديف وبوسائل من هذا القبيل، لم يكن من الممكن الذهاب بعيداً. كافكا لم يخرج من براغ، تقريباً، وكان موظّفاً بسيطاً.

بارون: وذلك لأنّ عملاً من أعمال المغامرة ليس من الضروري أن يكتبه مغامرٌ.

بورخيس: ولا النسيان أيضاً. عندما يريد أحدنا أن يتذكر أمراً ما، يجب أن يكون قد نسيه أولاً، ومن ثم تقوم الذاكرة باستعادته. الحلم شكل من ذلك النسيان.

ساباتو: أمر جيد أن ننسى كل اثنتي عشرة ساعة. أتعتقد أننا يمكن أن نعيش بدون ذلك النسيان؟

بورخيس: بدونه ستكون الرتابة، والملل...

ساباتو: بل اليأس والجنون على ما أعتقد. لا يمكن أن نعيش بدون أحلام. وبدون الخيال أيضاً.

بورخيس: (يتمتم) وجبات غداء، شاي، صحف، وجبات طعام مفضّلة، وجبات فطور... ستكون الحياة بدون طبقٍ من أحلام، شيئاً لا يطاق، أليس كذلك؟

ساباتو: ولكن بما أنّ الموت ينتظرنا في المستقبل، فهناك كوابيس لا يمكن أن تكون سوى رؤىً من الجحيم الذي ينتظرنا.

بورخيس: ولكن ألا تعتقد يا ساباتو، أن النّعيم والجحيم ليسا سوى اختراعات لفظية؟

ساباتو: أعتقد أنهما حقيقيّان، على الرّغم من أنّ ذلك لا يعني أنهما حقيقتان ساذجتان جداً كتلك التي يعلّمونها للأطفال في الكنائس. الكوابيس، رؤى أولئك المجانين الذين «يخرجون عن طورهم»، انظر مدى أهمية ما تعنيه هذه العبارة القديمة، إنّ رؤى الشعراء هي حقائق، وليست أكوام كلمات. الذين كانوا يرون دانتي يمر في شوارع رافينا نحيلاً وصامتاً، كانوا يروون همساً، وبنوع من الشكّ القدسي: ها هو الذي كان في الجحيم. أنا أعتقد أنّ دانتي رأى، مثلما رأى كل شاعر عظيم بوضوح مريع، ما كاد يلمحهُ عامة الناس. ما يتوصل الإنسان العادي إلى أن يراه بشكل ضبابي في تلك الميتة الصغيرة العابرة، التي هي الحلم.

بورخيس: (الذي استمع إليه بريبة خفيّة) أنا مرتاحٌ حين أفكّر أنّ النّعيم والجحيم مجرّد مقارناتٍ لفظيّةٍ مبالغ فيها.

ساباتو: وبعباراتٍ أخرى، فإنك تعتبر إذاً، أن مجموعة قصصك مجرد اختراعات لفظية وليست اكتشافات لواقع (تغيرت ملامحه وهو يبتسم

الآن)، على الرغم من أنك تقاوم، فأنت في هذه اللحظة مُكتشفٌ لوقائع أخرى.

بورخيس: حسناً، عندما أنهمك في الكتابة، لا يكون لشخصي، قبل أيّ شيءٍ آخر، أهميّة تُذكر.

من يهتم بشخص يدعى بورخيس؟

بورخيس: في الثلاثمئة ميزو التي أعطاني إيّاها والدي، قمت بطباعة ثلاثمئة نسخة من أوّل كتبي. ما الذي كان بوسعي أن أفعله سوى توزيعها وإهدائها إلى أصدقائي، ومن الذي يهتم بشخصٍ يكتب شعراً ويُدعى بورخيس؟

ساباتو: الناشر يفضّل الكاتب الذي يتنازع الجميع على اقتناء كتبه. وهذا يجعل أيّ بدايةٍ صعبة. ومع ذلك، فإنّ الأمر الغريب هو أنّ المرء عندما يرى رفوف المكتبات الآن الحافلة بعناوين الكتب، يخال أن عدد الكُتّاب يفوق عدد القراء.

> **بورخيس: عندما يريد أحدنا أن يتذكّر أمراً ما، يجب أن يكون قد نسيه أولاً، ومن ثم تقوم الذاكرة باستعادته. الحلم شكل من ذلك النسيان**

> **ساباتو: أعتقد أنّ كلّ فن، إمّا أن يرقى إلى مكانة الشعر بالمعنى الأعمق للكلمة، أو لا يكون أكثر من مجرد سجلّ أخبار صحافية أو أحداث طبيعية**

فصل من رواية

رامبو الحبشي *

حجي جابر

يا للبؤس! الآن يقول: أعرف الأشياء/ ويسير مغمض العينين، مصموم الأذنين (رامبو)

حين بدا وكأنه يراها للمرة الأولى، أغلقت الباب. انكفأت خطوات للوراء قبل أن تسارع للطابق الثاني -كمن تذكر شيئاً للتو- وتفتح نوافذه، حتى تلك التي صدئتْ مزاليجها لفرط ما ظلّت موصدة.

ما إن غمر الهواء المكانَ وخفّف من ثقل روائح شوالات الحبوب المتناثرة في الطابق السُفليّ، حتى هدأتْ قليلاً وبدأتْ تمنح انتباهها لأصوات الصبية في الخارج وهم يُحيطون بالعربة: «عبد ربه.. عبد ربه». كان الجسد نصف المعطوب يتمدّد على نقالة، فيما صاحبه يئنّ «الله كريم.. الله كريم»، وهو يُثبّتُ زنّاره، ويلوّح للهرريين من حوله أنّه سيعود قريباً، بينما خادمه يمسح بقماشة مبلّلة على جبينه، وهو يرفع رأسه خِلسة صوب النافذة، قبل أن يُخفضها مذعوراً. وحدها كانتْ تشعر أنّ رحلته هذه المرة في اتجاه واحد.

ومع هذا، لم تجرؤ على إطالة الفرجة عبر فتحات النافذة الخشبية. كانت تخشى أن تصطدم ثانية بتلك النظرة.

«كنتُ في انتظاره دائماً، لكنني لم أعد أفعل. كففتُ عن تطويع كل أفعالي لمجرد جلب انتباهه. هكذا، ودون سابق عزم، فقدتُ الرغبة في أن يراني. لماذا؟ أعرف تماماً لماذا، ولكن ألم أكن أعرف دائماً ومنذ البداية؟ لماذا الآن إذن؟ ألأنه يرحل؟ أم لأنه كان راحلاً عني على الدوام؟ عني أنا تحديداً، دون غيري، ممن لطالما شملهم بعطفه ورعايته وكرمه وابتساماته، في الوقت الذي لم أُعطَ فيه سوى التجهّم واللا مبالاة، كما لو أنّ الرب قد منحه للجميع سواي. لماذا الآن؟ أظنني تعبتُ أكثر مما انتصرتُ لنفسي».

ترفع عينين فارغتين للمرّة الأخيرة. نظرة أشبه بنظرة جندي سكتتْ من حوله فجأة أصوات القنابل والرصاص، ووسط أرض تحترق، خالية إلا من الجثث. بقي هو ينظر لكنه لا يرى، يتأمل الخراب ولا يعيه، يحاول استرجاع ما جرى ولا يقدر. إنه عالق الآن هنا، في هذه اللحظة التي لا يعرف فيها إن كان منتصراً أم مهزوماً. غير مدرك حتى إن كان ميتاً أو على قيد الحياة. هكذا شعرتْ وهي تُلقي نظرة زائغة على موكب الرجل وهو يبتعد.

«جزء من حياتي يذهب هو الآخر. لستُ بعدُ في منطقة التمييز بين ما إذا كان هذا جزءها الأفضل أم الأسوأ، الأهمّ أم الأتفه، الأثمن أم الأبخس، الأكثر سعادة أم الأشدّ إيلاماً. غير أنني لستُ عاجزة عن الحكم على هذه السنوات وحسب، فلو طُلب مني أن أستعير أوصافاً لحياتي، لن أجد، أن أحكم عليها؟ لن أعرف.. أن أُخرج هذه السنوات من كتلة حياتي لأحكم عليها، دون غيرها، يبدو أمراً باعثاً على السخرية، ولكن ربما لأجل الأمل.. الأمل الذي صاحبها، الأمل بحياة جديدة، الأمل بشخص مجهول، الأمل في الحظّ. الأمل نعم، تلك البذرة السامّة التي قادتني في الأصل إلى هنا، وإلا ما الذي أتى بي؟ ما الذي جعلني أندفع بكامل طاقتي آملة في العلوّ، مثل ساق زهرة ترتفع بوجهها إلى السماء، غير عابئة بما يسقط منها، ولا بتلك الأرض التي مهما ارتفعتْ عنها ستظل جذورها مغروسة فيها. أردتُ نزع جلدي، والرجل الغريب كان أقصى دليل على هذه الإرادة. لو أني تشبّعتُ بالتفكّر في هذا الصليب الموشوم على جبيني، الذي رافقني في كل وقت وفوق كل أرض، لفهمتُ أنها رغبة مستحيلة وساذجة. من استطاع يوماً الخروج من جلده؟».

كانت العربة تواصل الابتعاد يُحاذيها الخادم ويطاردها الصبية، حين استرعتها خشخشة الأوراق التي بدأ الهواء يعبث بها.

خطتْ ببطء حتى استقرتْ قبالة الطاولة، الدواة والدفتر وقطعة القماش المتسخة، وكتب الحِرف اليدوية. لمحتْ مرآتها الصغيرة في الزاوية، على حالها الذي تركته، مشطورة من منتصفها إلى أجزاء كثيرة. تجاهلتْها وحسب. سحبتْ الكرسيّ. ترددتْ قليلاً قبل أن تجلس، وقد تسلّل إليها شعور غامض. لقد شعرتْ بالغربة فجأة، كما لو كانت قد وصلت توّاً إلى هذا البيت، كأنّ يداً قذفتْ بها إلى هنا مثلما يُقذف أيُّ شيء آخر، حتى أنها همّت لوهلة إلى التلفّت حولها، كأنما لتكتشف المكان الغريب، والذي بالعودة إلى الحقيقة كانت تحفظ أركانه وجدرانه وسلاله الدائرية الملوّنة الكثيرة عن ظهر قلب. فجأة تذكّرتْ أمها، بعد رحيل أبيها بسنوات قليلة، في تلك الليلة الشتوية المظلمة، عندما استيقظتْ على صوت نشيج في قلب الليل، وكأنها ليلة الرحيل الأولى. كانت تعرف سبب بكائها ولكن كمحاولة لتعزيتها حدثتها أنها على الأقل بين أهلها ولكن ماذا عنه، لا بدّ أنه غريب أينما حلّ. لن تنسى كيف ضمّت الأمّ قبضتها وضربتْ على صدرها بقوة، لا تلائم الصوت المبحوح وهو بالكاد يخرج: «الغربة هنا.. هنا في القلب».

كان الهواء ما زال يعبث بالورق، فيما هي ساهمة في جلستها تلك. بدتْ عزلاء تماماً في مواجهة أغراضه. «إنها المرة الأولى التي أقابل فيها كل هذا الحشد وحدي. اعتدتُ طويلاً أن أراقبه من بعيد، جالساً على هذا الكرسيّ، الذي أجلس عليه الآن، مولياً ظهره لي، يغمس قلمه في الدواة بيد، فيما تجوس الأخرى في الرأس الحليق. لطالما عرفتُ من ركني ذاك، متى يفرغ الحبر، كنتُ حتى أدخل في رهان مع نفسي: «الآن.. نعم الآن سيغمس القلم»، وكنتُ أربح في كل مرة، إلى حدٍّ أحببت معه أن ألعب هذه اللعبة، فأتخيل أنني من يمنحه الأمر في كل مرة: اغمس القلم الآن. وقد كان يفعل. أليس من البلاهة لو قلتُ إنني كنت أبتهج بذلك الربح الصغير؟ ولكنّ الغريب ليس في هذا، الغريب أن أقول الآن إنّ تلك البهجة التافهة، المفرغة من كل معنى سوى توهّمي، دفعتني لما هو أبعد، جعلتني أطمح لربح رهان أعلى: الآن سيراني. لكنني لم أربح هذه قطّ.

قضيتُ الأيام أجرجر أثقال الهزيمة، حتى أشغلتني عن رؤية كل ما سواها، ورحت أستميت لأنتصر، ولو لمرة واحدة، مرة واحدة كانت ستكفيني».

علتْ خشخشة الورق. وضعتْ يدها عليه فسكن. أمسكتْ بالقلم الخشبي وتفحصّته. مرّرتْ إصبعها على مقدمته المدبّبة التي سطّرتْ كلّ تلك الكلمات، لكنها في الأثناء كانتْ قد لكزتْ الدواة فاندلق حبرها على الطاولة الخشبية العتيقة. راقبتْ الحبر وهو يتبع الشقوق ويتفرّع ببطء في كل اتجاه.

لا تعرف لمَ شعرتْ أنّ كل شيء، وعلى خلاف ما يبدو، قد بدأ للتوّ.

سأمضي بعيداً، بعيداً جداً، كمثل بوهيميّ/ عبر الطبيعة- سعيداً كما لو مع امرأة (رامبو)

أصابتْ الحبشية فيما ذهبتْ إليه. ومع هذا فقد فاتها الكثير مما سيبين في حينه، فقد كانت قافلة آرتور رامبو في هذه الآونة تتجاوز سور جُغَل عبر بوابة النصر، وتتحضّر لتذرع الصحراء الدنكالية الممتدة نحو ميناء زيلع، حيث تربض سفينة بانتظار الإبحار صوب مرسيليا. ستة عشر هرريّ يحملون النقّالة المغطّاة بستارة من الجلد المدهون، تتبعهم الجمال وهي تثير غباراً كثيفًا يُظلّل الموكب ويمنحه جلالاً مهيباً.

ألا تبدو هذه هي الجنازة الحقيقية للرجل، عوض تلك التي ستجري في شارلفيل بعد ستة أشهر من هذا المسير، حين تحتمي سيدتان من المطر بمظلة واسعة، وتتبعان في سكينة، عربة الموتى السوداء الفاخرة نحو مقابر العائلة؟

ماذا إذن عن إغراء حضور جنازته؟ ألا يبدو هذا الخاطر ملائماً لمن قضى العمر لا يُشبه إلا نفسه؟ أم لأنه كذلك، كان يجب أن يُفوّتها، ثم يُخرج لسانه هازئاً في وجهها؟

لكنْ من كان سيقنع رامبو بالإنصات لهذه اللحظة الخاشعة، بدل الانشغال بحثّ الحمّالين المنهكين على تسريع خطاهم، وتهديدهم بحسم تالرات من أجورهم كلّما جنحوا للراحة قليلًا؟

أيُّ أمل هذا الذي يسكن رجلًا يرى جسده يتداعى، دون أن يمنعه ذلك من النظر إلى أيام بعيدة وهي تفي بأمنيات لا تنتهي؟ ألم يخطر بباله، ولو لبرهة، أنّ المشوار الطويل يُشارف على خاتمته، ويُنذر بالانتهاء؟

لكنْ من كان سيقنعه بفكرة النهاية أصلاً، وهو الذي اعتاد السير بلا هوادة حتى لو اضطّره ذلك للمراوحة في مكانه؟ والكلام هنا ليس ضرباً من المجاز، فكثيراً ما شوهد وهو يدور ساهماً بين جدارين حتى إذا اهتدى إلى فكرته تباطأ وقرّ دون أن تتوقف قدماه عن الحركة. هل انتبه الرجل في غمرة هذا المسير، إلى نبوءته القديمة وهي توشك أن تتحقّق، حين كان يهرب من البرد في بلاده، لأنّه إذا ما عاد إلى فرنسا في الشتاء، فسيموت لا محالة؟ هل خذلته ذاكرته، أم الأمل، أم عناده في وجه حياة عصيّة ما فتئتْ تُدير له ظهرها كلما أوغل يطلبها؟ أم تراه انتبه لكل ذلك، لكنّها الحيلة القديمة نفسها، فمتى ما كان ممكنًا أن تبدو الخسارة أقلّ فداحة، فليكن.

حين وصلتْ القافلة إلى أطراف أشجار كومبولشا، توقّف جامي عن مرافقتها. كانت تلك إشارة أخرى فائتة. بدا أنّ رامبو يتساقط بمضيّ الوقت، القدم المتعفّنة، المدينة التي لعنها قبل أن يقع في غرامها، ثم يعاود لعنها من جديد، والآن خادمه المقرّب، والذي ستأتي حكايته لاحقاً، حين أخذ يُلوّح بأسى حتى غاب سيده في المدى، ليعود باكياً إلى هرر.

وفي هرر، كانت الحبشية على حالها، على الكرسيّ نفسه، تتفحّص قلم رامبو بمقدمته المدبّبة وترقب الحبر وقد بدأ يقطر على الأرض، ليحشد مسيراً آخر هناك. خفتتْ أصوات الصبية في الخارج بعد أن تفرّقوا بين ملاحقة العربة، والانشغال بملهيات أخرى. لكنّ الضجيج انتقل إلى رأسها وأعادها لعشرة أعوام خلتْ.

«ضج السوق بورود قافلة تحمل أوروبيّ جديد. من مكاني رأيتُ عشرات الماشية يسوسها رعاة مسلحون ببنادق سان إيتيني المنتشرة في هرر، ودروع من جلد فرس النهر، والرجل، مثار اللغط والغمغمات التي بعثتْ نوعًا من التشويش علا الجوّ فجعله مستنفراً، على حصانه مرتدياً قطعتين من الكتان الأبيض، يُطالع وجوه الأهالي، وهو يشدّ بيديه على زنّاره، ويكاد يلتصق بمترجمه من الذعر، خصوصا كلما مرّ بجواره أحد أفراد الحامية.

الغريب في الأمر ربما هو أنّ هذا المشهد لم يعطني شيئاً على الإطلاق. رؤيته للمرة الأولى لم تبعث فيّ شيئاً. على خلاف ما أسمع في حكايات أخرى عن بصيرة المشاعر، وحين تنطق النظرة الأولى في القلب بما سيأتي على إثرها. ذلك لم يحدث معي. المنظر بأكمله أثار بداخلي الضحك ليس أكثر. لا أعرف هل يعني الضحك شيئاً؟ لكنني بعد أشهر، في بيته، أعدتُ تمثيل المشهد متقمِّصة فزعه وتلفّته يمنة ويسرة في ذعر، ما جعله هو الآخر يغرق في الضحك. صوّرتُ له كيف بالغ في الخوف من الهرريين الذين لم يتبقَ لديهم آنذاك سوى قليل فضول، بعدما سبقه إليهم ثمانية أوروبيين، وفكّوا لحام مدينتهم المقدسة. عندما جرّبتُ تكرار الأمر، حين بدا لي بمثابة الذريعة والمفتاح لجلب اهتمامه، بدأ ضحكه يصبح أقلّ، حتى بات رويداً يكتفي بالتبسّم، قبل التوقف عن الالتفات لي، فكففتُ بدوري عن حكايتي تلك تماماً». لو أراد رامبو أن يستعيد قصة فزعه، لما توقّف كثيراً عند لحظة دخوله هرر، على أهميتها، إلا حين طالع الوجوه المختلفة لجنود الحامية. عدا ذلك فقد لازمه التوجّس طوال عبوره للصحراء الدنكالية، وهو لا يعرف من أين قد يأتيه الخطر، من القبائل الموالية لإيطاليا، أم من تلك التي تمدّها فرنسا بالسلاح نكاية في الإيطاليين، أم من المتعاطفين دينيّاً مع الأتراك وهم يشهدون انحسار وجودهم الإفريقي، أم من البريطانيين الذي يختبئون خلف الإيطاليين ليوقفوا الزحف الفرنسي، طمعاً في مزاحمتهم على الخيرات. لم يكن ليأمن قبيلة، وهو يرى كيف يمكن لفوهة بندقية أن تغيّر وجهتها بين الصباح والعشية. أمّا وقد عبر سور هرر وبلغ سوقها، فقد انقضى جلّ خوفه.

كان موكب رامبو قد مرّ من أمام الحبشية فبانتْ ملامح الرجل أكثر، شعر قصير أشيب، ووجه متيبّس كالمومياء، وعين قلقة لا تكاد تثبت على حال. هاج جمل لفرط ما آذاه الصبية، وكاد ينال من أحدهم بقائمته الخلفية، فنثر التراب الأحمر على بضاعتها المغسولة توّاً، فيما نجتْ بضاعة جارتها التي تفطّنتْ أبكر وغطّتها بالقماش. قامتْ الحبشية تلعن الجمل، وهي تنوي قذفه بحجر، غير أنّ احتشاد الناس في المكان أعاق مهمتها. رجعتْ ساخطة تُعيد تثبيت حجابها، وتفكّ ألْحيَة الموز عن حِزم القات، وتغمس الأعواد المورقة في إناء الماء بالتناوب، قبل أن تُجفّفها بهزّها في الهواء، وتُعيد ربطها ورصّها على سجّادة من الخيش. التفتتْ فإذا الجارة كلثوم تُقاوم كتم ضحكة شامتة، قبل أن تنفجر حين بدا أنّ الحبشية انتبهتْ. حملتْ إناء الماء المتسخ، وتظاهرتْ برغبتها في سكبه على بضاعة جارتها، قبل أن تتوقّف بعد توسّلات كثيرة.

لا تكسب الكثير لوفرة المبذول من القات في السوق، ولأنّ زبونها، بدءاً من إمام الجامع الكبير وحتى لصّ البيض من أقنان الدجاج، بالغ التعنّت في إرضاء مزاجه، فلا يقبل تيبّساً في الأعواد، ولا ميلاً عن اخضرار الأوراق. ومع هذا هي راضية بعملها، بل ومُحبّة له. فلا شيء يُرمى أو يبيت. ما زهد فيه الناس، تدّخره لليالي هرر الطويلة. كل ذلك كان قبل أن تسرق من المدينة ليلها، وتشارك رامبو بيته.

«كانت لرامبو موهبة عجيبة في التآلف مع الناس وإشعارهم بالارتياح في حضرته كما لو كان يعرفهم منذ زمن بعيد أو أنه واحد منهم. لا يمكن نسيان أول يوم وقف فيه أمام بضاعتي، عما قاله لي، وكيف خرجتْ كلماته، بأيّ صوت وأيّ طريقة. لا يمكن نسيان نظراته التي غالباً لا تقول شيئاً، لكنها تمنح الطمأنينة، طمأنينة الشيء المألوف، كما لو أنّ عينه قد وقعتْ مسبقاً على كل شيء في هذه الحياة، كل شيء وكل أحد. لا أنسى ذلك لأنّه أبان لي كيف أنّ الأمل مهما كان صاحبه متفائلاً أو أخرق، لا يكون منبتّاً أبداً. لا يأتي من اللاشيء، هنالك دوماً ما يؤسس له. هنالك من يأخذ البذرة بين إصبعيه ويدسّها في أرضك، بعلمك أو دون علمك، ليس مهمّاً، المهمّ هو ما أشعر به الآن إزاء تلك اللحظة.

كنتُ غضّة وصغيرة، أو أنا هكذا دائماً. وحيدة وبوسع الآمال أن تقودني نحو الخطأ. كان من الطبيعي أن أنجرف مع أول إشارة لطف، وأيّ علامة استحسان. عندما قرر رامبو أن يقرّبني منه، خلتُ أنه اختارني لأكون قريبة منه. لماذا أنا إذن؟ غير أنّ الحقيقة المفزعة التي تبدو لي الآن، كانت أنّ الأمر حصل بالصدفة. تُعلّمك الحياة بعد وقت، أن تُعفي الأمور من تحميلها ما لم تحمله في الحقيقة، أن تكون أنت لا يعني أنّ أحداً اختارك لسبب، قد يكون الأمر أنه كان عليه أن يختار فقط، وبالصدفة كنت أنت، تماماً كما لو كان يمكن أن يكون غيرك. وكان لا بد للوافد الجديد من امرأة تؤنس وحدته ما أمكن، وهذا كل شيء.

من أين لفتاة هاربة من مصير نساء السهل المعروف والمحتوم أن تدرك ذلك في حينه؟ كيف لواحد أن يتخيّل كيف ننقذ صبانا وجمالنا وشغف أجسادنا هناك؟ كيف ننقذ أرواحنا من الذبول وقلوبنا من الانطفاء، بل كيف نُنقذ بطوننا من الجوع، وكرامتنا من الانتهاك قبل ذلك؟ كيف يمكن للواحدة أن تتقي مصير أمها أو أختها والأخريات ولا تتحول إلى بهيمة معصوبة تدور حول ساقية، متخيلة أنها تمضي قُدماً، والحقيقة أنها لا تراوح الدائرة التي رُبطت إليها بوثاق مشدود لا فكاك منه؟ بالهروب فقط، وأنا هربتُ لأحلامي، ولا ألوم نفسي، ولكن ألوم ألفة رامبو الزائدة أول الأمر. ألوم لُطفه حتى القليل منه. وألومه لأنه من حمل البذرة، وهو من جاء بها إلى أرضي، كيف لرجل مثله ألا يحسب عواقب ذلك؟ لكني أعود لأقول ولماذا سيفكر رجل مثله فيما ستشعر به بائعة قات وسط عشرات غيرها؟

رفيقة رامبو الحبشية (التْقِطت، حسب غالبية المختصين، في عَدَنْ، 1882).

لعلّه منحني ألفته، عن غير قصد، مثلما تآلف مع الهرريين جميعاً».

لم يساعد بدء توافد الأوروبيين على هرر في إزالة الجفوة تماماً. لم يكونوا على يقين من قدرتهم على اجتياز السور دون ضرر، ولم تمنحهم المدينة ضمانة معلنة، فاحتفظ كل فريق بما يُكنّه من توجّس، الأهالي من جهة، ومن نجح في عبور السور من جهة ثانية. لم تكن المدينة قد نسيتْ تماماً كيف كان محرّماً على غير المسلمين دخولها، قبل أن يذهب الاضطرار بتلك القداسة إلا من نفوس أهلها. وحتى هذا، لم يدم إلى الأبد.

هذا الاضطرار لم يكن إلا بسبب مينيلك الثاني، ملك شوا، حين ضيّق الخناق على المدينة بغية إخضاعها لسلطته المتنامية، وأخذ يضع العثرات في طُرق القوافل الوافدة إليها، حتى بدأتْ هرر تجوع وتمضي نحو هلاك محتوم، لولا لجوء أمرائها المتأخرين إلى حيلة، حين تغاضوا عن دخول قوافل تضمّ أوروبيين يتظاهرون بإسلامهم، وهم يعلمون أنّ الملك الحبشي لن يتعرّض لرعايا من يمدّونه بالسلاح.

كان الهرريون ابتداء قد تعرّضوا لخديعة من أوروبيّ مهووس بعبور الحدود المحرّمة، حين تخفّى في زيّ تاجر عربي أسوة بما فعل في مكة، فدخل مدينتهم أخيراً، بعد محاولات كثيرة فاشلة. لكنّهم هذه المرة أشاعوا نجاح المحاولات الجديدة، فتجاسر البقية على التجربة. ولما وصل الدور على تاسع الأوروبيين، كانتْ الأمور قد اتضحتْ تماماً، ولم تعد المدينة حصناً مقفلاً تماماً. لكنّه، أي رامبو، لم يلتزم بحدوده كأوروبيّ، فمنذ اتخاذه الطابق الثاني من فرع شركة باردي منزلاً له، وجعل الطابق الأرضي مخزناً لشوالات الحبوب، حتى اعتزل أقرانه الوافدين، وانخرط بين الأهالي، تخلّى عن مترجمه، وأخذ يلتقط الأمهرية من الشوارع كلمة كلمة، كما يفعل الحمَام مع الحَبّ المنثور، ويُضيفها إلى ما عنده، ثم يطوف بقاموسه المتنامي على الباعة والصبية والشحّاذين، يُمازح ويلاعب ويلاطف. لكنه سرعان ما ينكفئ متجهّماً، إذا ما سمع نباح كلب في الجوار، أو أفسد الصغار راحته، فيخرج يطاردهم بالحجارة.

جرّب أكل أمعاء الخراف النيئة، بعد غمسها في الفلفل الأحمر المهروس مع الثوم، كما يفعل الهرريون. وهزّ أكتافه بحبور وهو يقفز، ليجاري الراقصين على أنغام الكرّار في دوائر متداخلة، وزاحم المناكب في حلقات الذِكر أيام المولد النبويّ، وجرّب مضغ القات بتلذّذ. حينذاك كان لقاؤه الأول بالحبشية.

«كان يمشي بشكل خفيف، برأس مائلة تنظر إلى السماء، كمن يدندن أغنية وعلى فمه ابتسامة رضى صغيرة. كان يفكّر على الأرجح، غير أنه وبينما كان مارّاً بي توقف فجأة. عدّل من زنّار كان يحيط بوسطه، محاولاً التيّقن من ثباته، دون أن ينقطع عن الغناء. راح يطالع الأوراق الخضراء بفضول، ثم يرفع بصره لي. ظلّ وقتاً يراوح بيني وبينها حتى خرجتْ من بين شفاهي ابتسامة، عندها مدّ يده وتناول حزمة وقربها من أنفه. وحين تبدّى له جهله بها، توجه إليّ يسأل بالأمهرية عن اسمها. أخبرته عن اسم النبتة المقدسة، فأخذ يعيده ويتدرب على نطقه: «قات.. قات».

أراد معرفة إن كانت تطبخ أم تؤكل نيئة. أعيته اللغة، فاستعاض بيديه. ضحكتُ رغماً عني بينما أحاول عبثاً إفهامه نطقاً وإشارة أنها لا تؤكل من الأساس. كان يكرّر الكلمات خلفي بتركيز يفقده الإمساك بالمعنى. ولما يئستُ أشرتُ لتكوّر فم كلثوم الجالسة حذوي، ومن يجاورها والثالث والرابع.

أخذ يلتهم الأوراق متعجّلاً ملء فمه مأخوذاً بالرائحة العطرية، استمهلته.. فبدأ يمضغ على مهل ما أنتقيه له، فيما الناس من حولنا في ازدياد. لكنّ محاولاته في تكوير فمه ذهبتْ سدى وسط ضحكات الباعة ومن تجمّع بفضول.

ينتابني الضحك من جديد، كأنه حصل البارحة. كأنّ الأيام لم تمضِ وأنّ نهاية ذلك الضحك الكثير الذي ضحكته يوماً ليس بكاءً. كانت أمي تحذرني من الضحك الكثير. كانت إذا رأتني أضحك باستغراق تنهرني، ثم ترفع رأسها إلى السماء وتتذلّل إلى الرب أن يقينا شرّ هذا الضحك. لهذا ننشأ نخاف الضحك، نتوقع الحزن بعده، وعندما نحزن نقبل ذلك صاغرين لأنه جزاؤنا، فقد ضحكنا يوماً ما بغير حذر أو حساب. نضحك ونطلب من الرب المغفرة، ويومها أنا ضحكتُ كثيراً، والربّ لم يغفر لي فيما يبدو.

عوض أن يمتصّ ماء الورقة المتفتّتة وحده، كان رامبو يبتلعها على غير إرادته في كل مرة. جرّبتْ كلثوم أن تُعينه، فوقعتْ عينه على سنّها الذهبي الذي يتقدّم فكّها البارز، قبل أن يختار أن يتجاهلها. وما إن كنتُ أنطق حتى يستجيب لي. لكنّ ذلك لم ينفعه، فغادر حانقاً يحمل حزمته. كان ذلك لقائي الأول به. الذكريات تدور حولي كالأفاعي. عندما تتألم من أحد، يصعب عليك بعد ذلك التمييز بين ذكرياتك الجميلة عنه وذكرياتك السيئة. لا أعرف إن كان الجميع قد جرّب ذلك، تلتحم الذكريات عندئذ وتتكور، تتكثّف في منطقة واحدة لتصبح مبعثًا للهمّ فقط، بحلوها ومرّها. السعادة فيها تؤلمك والحزن يؤلمك. كيفما يكون الماضي، الجرح يلطّخ الذكريات بدمائه فلا يعود للسعادة فيها أثر.

يومها نسيتُ أن أنبّهه إلى ما ينتظره في الغد، وهو ما تحقّق، فقد جاء يشتكي من تقرّح في جانب من لثّته، وسط ضحكات شماتة مكتومة من كلثوم التي لم تنس تجاهله لها. لكنّ آلام فمه لم تمنعه من شراء حزمة أخرى، وقضاء النهار يتردّد عليّ، يسألني ويختبر قدرته على تكوير فمه، حتى نجح أخيراً، ففرح كمن أصاب مبلغاً عظيماً. لن أنسى وجهه في تلك اللحظة، كما لن أنسى ذات الوجه في لحظات أخرى، عندما تتبدل الملامح في رمشة عين وتحلّ محلها ملامح أخرى.. لن أنسى".

غدا رامبو كثير التكرار على الحبشية، يغادر مخزنه ضحى، يعبر الأزقة نزولاً صوب الجامع الكبير الذي يتوسّط المدينة، يهرع إليه المساكين المتناثرون على العتبات الحجرية التي تُطوّق الجامع. يتوقّف باسماً ويمنحهم. لكنّه مرات يضيق بهم ويسرّع خطواته، بل ويلعن من لا يكفّ منهم عن ملاحقته. يواصل سيره نزولاً حتى يصل السوق فيتوقّف يتملّى بإعجاب في السلال الدائرية الملوّنة، ويقاوم كي لا يشتري منها مجدداً، وقد امتلأ البيت بها. يعبر سوق الماشية وقد غطّى أنفه، ومنه إلى سوق الجلود، فالأواني، قبل أن يتوقّف قليلًا عند عجوز تبيع القهوة، ولا يكاد يمرّ بها سواه لفرط ما تستغرق وقتًا في كل حركة، غسل الحبوب، وتحميصها، ثم طحنها وإيداعها الإناء الفخاري الذي يتوسّط حفرة جمر نصف مشتعل. كلّ هذا ورامبو يجلس جوارها بصبر من لا مشاغل عنده، قبل أن تمدّ له بيدها المهتزة نافرة العروق فنجاناً يندلق بعضه قبل أن يتناوله، دون أن يُثير ذلك حنَق الرجل.

حين ينتهي من قهوته، ويختم أحاديث ودودة مع العجوز، يمنحها أضعاف أجرتها، فتترك كل شيء وتتجه للقبلة، ترفع يدها عالياً وتتوسّل أن تصفو حياة عبد ربه. كان يستمتع برؤية ذلك في البداية قبل أن يألفه فغدا يتركها في منتصف دعائها، غير آبه بمصير الدعوات. يدلف إلى سوق القات حيث الحبشية وصاحبتها تناكفان هذا وتشتمان ذاك. يجلس قبالتهما ليسأل عن بضاعة اليوم وهو يقلّب بيديه بضاعة الحبشية وحدها، ويتلذّذ برائحتها العطرية. تُبادر كلثوم للرد فتعود خائبة. فعلتْ هذا مرتين، فلما تيقّنتْ من سلوك الرجل أخذتْ تتعمّد تجاهله.

مع الوقت لم تعد الحبشية تنتقي له، صار متزمّتاً في اختيار حزمته، يمدّ يده لينتزع من الأسفل، حيث تُرصّ الحِزم الأجود أولاً. يمضغ على مهل كل ورقة وكأنها الأخيرة، ويُتبعها بالعود الرطب، ولا يغفل المناوبة بين فكّيه يوماً ويوم، بحيث لا يتقرّح جانب إلا وقد شُفي الآخر. لكنه وسط ذلك كلّه، حين سألها مرة عن اسمها، رأتْ في عينيه شيئاً يتجاوز أحاديث القات، فشعرتْ باضطراب في معدتها. التفتتْ إلى كلثوم، فوجدتها تُشيح ببصرها إلى الاتجاه الآخر، وهي تضع يدها على فمها تُخفي بسمة مرتبكة. «ألماز».

أجابتْ وتشاغلتْ بتثبيت حجابها، ورشّ الحِزم بالماء، وهي ترمقه بنصف عين يهزّ رأسه وهو ينطق اسمها بما يُشبه الإعجاب، قبل أن يميل برقبته يتبع شاباً ممشوقاً ومجدول الشعر، بدا وكأنه يعرفه.

تسترجع ألماز كل ذلك باضطراب، فما كان مبعث بهجتها غدا نصلاً يوغل في الخاصرة كلما استدعته الذاكرة.

لا تعرف بالضبط متى بدأت الأشياء في التداعي. حين تستعيد أيامها معه يبدو الأمر وكأنه حدث دفعة واحدة، دون أن يترك لها فرصة لفعل شيء، التوقّف مثلًا، أو الهرب أو الاستغاثة في منتصف الطريق حتى.

ما لا تعلمه ألماز، ولعلها تعلم، أنّ كل شيء سار بالبطء اللازم لتفهم ما يجري على أحسن صورة، غير أنّها اختارتْ ألا تفعل. هل الأمل الكاذب هو ما ضللها؟ وماذا إذا كان خلاف ذلك؟ أي أنّ تغافلها عن الحال لم يكن بداعي الأمل، أي المستقبل، بقدر ما كان بداعي السابقة، أي الماضي. فما دامتْ قد جرتْ أمور جيدة، فلا مانع إذن أن تجري من جديد.

لكنّها، أي ألماز، امتلكتْ جسارة المضيّ، رغم الخسارات، حتى النهاية. هذا وحده أتاح لها أن ترى الكثير من الأشياء بوضوح، لكن بعد أن غدتْ خلفها، وفقد الأمر قيمته.

* فصلان من رواية «رامبو الحبشي» صدرت حديثاً عن منشورات «تكوين» في الكويت.

نيكولا دو ستايل ـ «الكونشرتو» (زيت على قماش، 1955).

قصيدتان

شفتايَ هارمونيكا في جحيم

رشيد المتوكل *

1. أفشلُ تماماً في تحويلك إلى مجاز

بطريقةٍ آلية
رابعُ إبريق شاي يُقدمُه لي النادل
بينما شفتايَ لا تزالان تتحسّسان الخامسَ.
ولأن مذاقَ الشاي السكري
يعيدني إلى الطين
جرّبت أن أنحَتَ وجهَك عليه
هي الخسارةُ الرابعةُ التي أدلقُها
مثلَ مضغةٍ لم تُنفخ فيها روح
ما دام الطينُ جافّاً
ويداي هاتان لا تتنفّسان
أفشَلُ تماماً في تحويلك إلى مجاز.
كلُّ الخواتمِ التي جدلتها من فوضايَ، وكؤوس الشاي القرمزية بنَكهةِ السكر
لا تكفي لعقدِ صداقةٍ مع الخسارة
ولا سيما حين تشهقُ بين ذراعيَّ
استعارةُ امرأة.
كم أوصيتني أن لا أخرجَ مني،
وقد خرجتُ منكِ
وأنت القريبة البعيدة
صرتِ في داخلي، تراودين الرغبة: هيت لك
لي أن أبقى منفرداً في البراري
أصطاد الخسائرَ بشغفٍ
وأرعى الخِذلان.
وبغفوةِ نصفِ صاحٍ
أتوكأ على اسمِكِ
الهلامي، حين أسابقُ الفهود
والشبقي، حين أهشُّ على قطعان الأحلام
بأصابعَ مدربةٍ نحوك
اسمُكِ الذي يهدّئُ توترَ الأدغال
يسوق شعباً مني على غير هدى
تنتهي خطواتُهم عندك.

2. أنا أيضاً إنسان

أنا أيضاً إنسان
من يفسّرُ لي هذا؟
ولدتُ من صلبِ صخرة
وأموت داخل استعارة
نظرياً: الاستعارةُ مجرّةُ خمور
اللفظُ والمعنى سائلانِ
مجازيان
وكُلّما رشفتُ رشفةً
احترقتِ اللغةُ في حلقي
لم أتفوَّه
الرائحةُ بخارٌ حادّ
والأبجديةُ أكثرُ صلابة
بهذا المعنى:
كُلما حاولتُ أن أنجو
كان جسدي من زجاجٍ
وكانت شفتايَ هارمونيكا في جحيم.
لم أتبخّر
وبعد أن شربت هذا الليلَ حتى الثُّمالةَ
أبدو كفارس طروادة
راحتاي ساحة حرب
وعيناي سيوف مفلولة
أسرج حظي صوب عينيك
فينفجرِ العالم في وجهي
لم أتبخّر
صرت سحابة شائكة
تنسج الغيم من الغبار.
ولأنني متأبّط وجهي مخافة أن يفزّعني، كانت عاصفة من اليأس والهزائم تلعب بين ذراعيَّ، ولم أنتبه.

* آسفي/المغرب

شذرات

فُرجةُ طمأنينة بين كتفكِ وأنفكِ

أسماء فيصل عواد*

مذْ عرفتك أقلعت عن أمرين: استخدام السكر والتفكير بالعودة إلى مضادّات الاكتئاب.

■■■

لا يتعرّف حاسوبي المتطوّر وهاتفي الذكي إلى بصمة وجهي إن كنت مستيقظة من النوم أو خارجة من نوبة بكاء، أما أنت فتعرفني عن ظهر قلب بلا إنترنت.

■■■

أفقد 65% من ذكائي معك، لحسن الحظ لا أحتاج إلا إلى النبل كي أنجح في امتحاناتك.

■■■

تسألني عن نافذة الحياة... هي فرجة الطمأنينة بين كتفك وأنفك، حين يستقيم ظهري ويرتفع ذقني لأرى بوضوح من هذه الزنزانة.

■■■

أصبح لديّ أخيراً إدارة مالية... كلما أنفقت ورقة نقدية، أحسست بنصائحك تغرس ظفْرَها المدبب في خاصرتي.

■■■

تحملني بعينك، وأحملك على حاجبي؛ فالعين لا تعلو على الحاجب.

■■■

كلّ الأفراح مُرة حين تغيب ابتسامتك.

■■■

يجد المرء الإعجاب كلّ يوم، ولكنه نادراً ما يتعثّر بالحب، هل فهمت لماذا نقع في الحب وقوعاً؟!

■■■

حتى في شقّ الصخر القاسي يزهر الدحنون في كلّ ربيع.

* عمان/الأردن

«ازدِهارٌ وسط الفحم» (صورة من الملك المُشاع على النت)

فكر

إلزا دورلين: العنف بين الجسد المستباح والجسد المهيمن!

محمد ناصر الدين

ما الأثر اليومي للعنف في حياتنا وأجسادنا وعضلاتنا؟ وما الذي في مقدورها، بدورها، أن تفعل أو لا تفعل أمام هذا العنف وبواسطته؟ وكيف يمكن التمييز في سياق ثقافي واجتماعي وسياسي بين «ذوات منيعة» و«ذوات مستباحة»، أي بين ذوات لها المشروعية في الدفاع عن نفسها وأخرى لا مشروعية لها في ذلك (لتصير بذلك غير حصينة ويتعذّر الدفاع عنها)؟ هذه الأسئلة المهمة وغيرها تطرحها إلزا دورلين، أستاذة الفلسفة السياسية والاجتماعية والباحثة في قسم دراسات المرأة والدراسات الجنسانية في «جامعة باريس 8» في فرنسا، في كتابها المرجعي «فلسفة العنف» (2017).

الكتاب الذي انتقل أخيراً إلى العربية (دار الساقي ـ ترجمة جلال بدلة) يضمّ ثمانية فصول (220 صفحة) تتنوع موضوعاتها ما بين «تصنيع الأجساد العزّل» وصنوف الدفاع الذاتي والعدالة البيضاء، واحتكار الدولة للعنف والعدالة البيضاء. تشرح دورلين أنّ ثمة خطاً فاصلاً تاريخياً بين الأجساد «الجديرة بأن تكون محميّة»، وبين تلك التي تجرّد من السلاح ومن حقّها بالحماية وتُترك عزلاء. هذا التجريد المنهجي من السلاح، يعيد السؤال حول مسألة اللجوء إلى العنف دفاعاً عن النفس عند كل حركة تحررية.

تلاحق دورلين قوانين وممارسات «الرجل الأبيض» منذ تشكل الدولة الحديثة في أوروبا والغرب. ففي عام 1685، حظر «القانون الأسود» الفرنسي من أن يحمل «العبيد أي سلاح هجومي أو عصا غليظة». وفي القرن التاسع عشر، منعت الدولة الاستعمارية السكان المحليين في الجزائر من حمل الأسلحة، فيما شرّعته للمستوطنين، لتصل إلى ما نراه اليوم من مطاردة أصحاب السحنة السمراء في المطارات ومحطّات القطار لأقل شبهة أو ريبة. تنطلق دورلين من حادثتين مهمتين وتبرز تطور سياق «فلسفة العنف» في الفترة الطويلة الممتدة بينهما: الحادثة الأولى حين قضت محكمة غوادولوب الاستعمارية الفرنسية عام 1802 بعرض ميبه دو لاجيراردييرداخل قفص حديدي بارتفاع ثمانية أقدام وسط ساحة عامة حتى الموت، وأخذ المعاقب المسجون داخل القفص وضعية الراكب على حصان وتحته نصل حادّ وقدماه مثبتتان داخل ما يشبه الرّكاب، إذ كان عليه أن يُبقي على مابضيه مشدودين ليتفادى، إن خارت قواه، الوقوع على النصل وهو ما حصل بعد تنكيل لثلاثة أيام أو أربعة. الحادثة الثانية حصلت في لوس أنجليس عام 1993، مع سائق التاكسي رودني كينغ، الشاب الأميركي من أصول أفريقية والبالغ في حينها ستة وعشرين عاماً. شاهد العالم بأسره على شاشات الفضائيات كيف جرى إيقاف هذا السائق بطريقة هوليوودية بواسطة ثلاث سيارات وطائرة مروحية انطلقت لمطاردته على الطريق السريع إثر مخالفته السرعة. بعدما رفض كينغ الخروج من السيارة، تعرّض للتهديد بسلاح ناري موجّه نحو وجهه، ثم تعرّض لصعق كهربائي من مسدس صاعق، وبينما يحاول النهوض وحماية نفسه من الضرب، انهارت بوحشية على وجهه وجسده عشرات متتالية من ضربات الهراوات. قيّد كينغ وتُرك مغمىً عليه، ومصاباً بكسور وجروح في الجمجمة والفكّ والوجه والكاحل. وسرعان ما برّأت هيئة المحلّفين الشعبية رجال الشرطة المعتدين الأربعة بحجة «الدفاع عن النفس» و«الشعور بالخطر في مواجهة عملاق بطول متر وتسعين سنتيمتراً كان يضربهم مع كونه مستلقياً على الأرض»، وتنطلق من بعدها أعمال الشغب اعتراضاً على الحكم وكانت مشاهد حقيقية لحرب أهلية خلّفت ثلاثة وخمسين قتيلاً وأكثر من ألفي جريح بين المتظاهرين.

في قضية دو لاجيراردييرد، تبدو التقنية المستخدمة من قبل المستعمِر كأنها تستهدف قدرة الذات المستعمَرة على الإتيان بأي ردّ فعل، كأن ذلك من أجل تعبير عن الضعف، فغذّى بذلك «توهّم الاعتداء لدى العنصري الأبيض». وهكذا أصبح كينغ، بعدما دافع عن نفسه ضد العنف البوليسي، شخصاً غير حصين، وبعبارة أخرى: كلما دافع عن نفسه أكثر، ازداد تعرضه للضرب والنظر إليه بوصفه المعتدي، و«لما كانت الأجساد التي تحوّلت إلى أجساد أقلوية مصدر تهديد وخطر وفاعل لكل عنف ممكن، فإن العنف الممارس عليها باستمرار، بدءاً من عنف الشرطة والدولة، لا يمكن بأي حال أن ينظر إليه بوصفه ما هو عليه بالفعل من عنف قذر؛ إنه عنف لاحق، ذو طابع حمائي ودفاعي، ومجرّد رد فعل واستجابة تحمل دائماً وأبداً طابعاً مشروعاً».

بين دفاع الغوادولوبي عن نفسه الذي سيؤدي به إلى العجز، ودفاع الأميركي الأسمر الذي يؤدي به إلى فقدان الحصانة واستنفار الماكينة الإمبريالية البيضاء بأسرها لسحقه، يتمثل هدف الزا دورلين في هذا الكتاب في الإحاطة بمنطقي الإخضاع هذين، في مواجهة آلة لم يحدث أن استثمرت بهذا الحجم في منطق دفاعي مغلوط لكي تضمن ديمومتها الخاصة. منطلقة من المعارف والثقافات التوفيقية للدفاع الذاتي العبودي، وممارسات الدفاع الذاتي النسوية، وتقنيات الالتحام التي بلورتها المنظمات اليهودية في أوروبا الشرقية ضد مذابح «بوغروم»، والشيء بالشيء يُذكر، كان يمكن لدورلين من باب الإنصاف الإضاءة ولو بخجل على التجربة الفلسطينية وتقاطعاتها مع حركات التحرر بوجه الماكينة الإمبريالية الكولونيالية والعرقية العنصرية ومواجهتها للمنطقين المذكورين معاً في قضيتَي لاجيراردييرد وكينغ، فالكتاب في مقاصده يعيد إلى الذاكرة نشأة الدفاع الذاتي عن النفس بوصفه ضرورة حيوية وصيرورة سياسية وإحدى ممارسات المقاومة، والتطرق للقضية الفلسطينية كمختبر لهذه المقاومة كان ليضيف إليه الكثير.

كان يمكن للمؤلفة من باب الإنصاف الإضاءة ولو بخجل على التجربة الفلسطينية

والمهانين في ذواتهم عبر تعذيبها وإهلاكها ونزع الشرعية عنها، كان هذا من أجل غرس فكرة العجز التام عن الدفاع عن أنفسهم في ذواتهم. في قضية كينغ، ركّزت دورلين على التباعد في تأويل شريط الفيديو للاعتداء على سائق التاكسي، إذ لم تتم معاينة الفيديو كمعطى خام أو مادة متّصلة يتعيّن تأويلها وإنما كـ«حقل منظورية مشبع عرقياً»، مستشهدةً بتعليق لجوديث بتلر حول الحادثة: «كيف نفهم هذا القلب لاإيماءة والقصد من منظور الترسيم العرقي لحقل المرئي؟ هل نحن أمام قلب نوعي لقيم الفعالية الخاصة إلى مرجعية معرفية أخذت صيغة عرقية؟». تستنتج أنه نُظر إلى رودني كينغ في كل اقتطاع للمشهد بوصفه يمثّل الجسد المعتدي، وصُرف النظر عن أيّ استغاثة منه أو السيطرة عليها بشكل أفضل. يُظهر الجهاز القمعي الذي نُصب لهذا الغرض ردود الفعل الجسدية والمنعكسات الحيوية للمحكوم ويستثيرها. وكلما تضخّمت المشهدية التي تُستعرض فيها المقدرة الذاتية في مساعيها المتمردة واليائسة من أجل النجاة، يزيد تحكّم السلطة القمعية بها، سلطة تختفي خلف حضور جلّاد سلبي واقتصاد من الوسائل (تقتير طعام، نصل بدائي، قفص حيوانات) بحيث يبدو أنّ المنكّل به يجري نحو حتفه من تلقاء ذاته. وهكذا يزرع الجهاز في العقل الجمعي للمستعمَرين فكرة محددة: «تزيد معاناة الضحية كلما دافعت عن نفسها أكثر»، فالقدرة على الدفاع الذاتي صارت معياراً يُستخدم للفصل بين أولئك الذين هم «ذوات بالتمام» وبين الآخرين المذلّين

لمحات

حاتم الجوهري

يستند حاتم الجوهري في دراسته «الصمود: الصورة غير النمطية للعربي في الأدب الصهيوني» (دار خطوط وظلال) إلى المصادر الصهيونية من أجل رصد ملامح الذات العربية كما تظهرها هذه الكتب والمؤلفات. لا يتوقّف الأكاديمي المصري عند الصور السلبية التي ظلّت تتناقلها الدعاية الصهيونية. إذ يرصد جانباً آخر في العقلية الصهيونية، لم يتمّ تسليط الضوء عليه بل ظلّ في الهامش. ملامح هذه الصورة الهامشية، تظهر العربي كمقاوم وكصامد في وجه الزمن انتظاراً للحظة التحول الوجودي كي يستردّ ما سلبته منه الصهيونية وتعود إليه ذاته.

رامي الطويل

بعد «رقصة الظلّ الأخيرة»، و«حيوات ناقصة»، صدرت أخيراً الرواية الثالثة لرامي الطويل بعنوان «قبعة بيتهوفن» (الساقي). في عمله الجديد، يحكي الروائي والسيناريست السوري سيرة بطل أدمن لعب الكرة طفلاً، كما كانت قراءاته السرية محاولة لتقليص المساحات من حوله خشية من الفضاءات المفتوحة. تمرّ أحداث الرواية بمراحل متعدّدة للبطل، وحروبه الكثيرة التي تتوزّع ما بين عصا مدرب التربية العسكرية التي انهالت عليه وهو طالب في الثانوية، والضربة التي تلقاها على وجهه من حقيبة امرأةٍ هجرها وقد تجاوز الخمسين.

إيمانويل بوف

انتقلت رواية «الهاجس» (1939) للروائي الفرنسي الأوكراني إيمانويل بوف (1898 – 1945) إلى العربية أخيراً عن «الدار الأهلية للنشر والتوزيع» (ترجمة: بهاء إيعالي). لتلتحق بعدد من الروايات والأعمال التي تمّ تعريبها في السنوات الأخيرة. أمام الحيرة التي تواجه البطل شارل بينيستو في الخمسين من عمره، يقرّر المحامي أخيراً أن يتخلّى عن كلّ ما يملكه: زوجته المحبّة ووضعه الاجتماعي المرموق، وأصدقاؤه. تخوض الرواية في نقاشات أخلاقية كثيرة في باريس تلك الفترة بانتقال البطل من محيطه البرجوازي إلى الشارع البروليتاري في العاصمة الفرنسية، محاولاً البحث عن مستقبل بديل له.

جيوري غزول

يأخذنا كتاب «الغابات» (كلمة – ترجمة: حنا عبود) في رحلة علمية تستعيد نشأة الغابات منذ البداية وعلاقتها بالمناخ والمياه والإنسان والحيوان والحشرات والمخلوقات الصغيرة والكبيرة. الكتاب مقدّمة وافية عن الغابات، أنجزها جيوري غزول باللغة الإنكليزية وصدرت سنة 2015، وفيها يطلعنا على ما يجري داخل الغابة، وكيف تتضارب وتتصارع هذه الكائنات النباتية فيما بينها ومع الكائنات الحية الأخرى. يروي سيرة موت وحياة الغابات وتجدّدها، ويتوقّف عند موقف البشر المتفاوت منها. يتجاوز المؤلّف السيرة الطبيعية للغابات، لينتقل إلى المواقف الفلسفية والأدبية من الغابات منذ جلجامش حتى والت ويتمان.

جليلة القاضي

تتضمّن مجموعة «برج الحوت» (دار العين) للكاتبة والأكاديمية جليلة القاضي 49 قصّة قصيرة، تراوح ما بين القصص القصيرة جداً، والقصص القصيرة. تتنقّل الحكايات ما بين أمكنة طبيعية وعمرانية عدّة، فتغوص في أعماق البحار وتدور في الشوارع الأسفلتية لبعض المدن مثل القاهرة وباريس وغيرها من الفضاءات العمرانية التي تصقلها الكاتبة المصرية بتخصصها كأستاذة تخطيط عمراني. وتأتي القصص الفانتازية حصيلة ثماني سنوات من العمل، ترافق فيها السينما والعمران والفنون الأخرى مع السرد. علماً أنها مجموعتها الثانية بعد باكورتها القصصية «بوركيني».

عبد الفتاح كيليطو

ليست رواية «والله إن هذه الحكاية لحكايتي» (منشورات المتوسّط) للكاتب والمفكّر المغربي عبد الفتاح كيليطو مجرّد رواية بأحداث فانتازية وشخوص عاديّة. إنها مناسبة أخرى للحفر في التراث العربي. إذ يحمل العمل بين دفّتيه أسئلة كيليطو الفلسفية والفكرية، حيث يوغل في بعض المرجعيات مثل «ألف ليلة وليلة» وكتب الجاحظ وأبو حيّان التوحيدي الذي يفرد له فصلاً كاملاً من الرواية. هكذا تأتي الرواية أشبه برحلة سحرية في عجائب الكتب وغرائبها، بما فيها من سفر وحب وجنيات ومخطوطات وآلهة ونساء فاتنات، فيما يجعل كيليطو من الكتاب بطلاً لروايته.

رواية

جهاد أبو حشيش: كلنا ضحايا مجتمع قاسٍ

حسين السكّاف

«اكتشفتُ أن الثورة لم تكن أكثر من طفلٍ، فرحَ به الجميع، وما كاد يحبو حتى صعدوا به إلى أعلى البناية، وأوهموه أنه قادرٌ على أن يمسك الغيم، ويغيّر خارطة العالم. فصدقهم، وقفزَ من أعلى البناية». الخيبة والمرارة هذه، وغيرها من الخيبات التي تكتنزها رواية «تفاحة العابد» (دار فضاءات ـ عمان) لجهاد أبو حشيش، تتجلّى ونحن نتابع يوميات «عادل»، بطل الرواية، الشاب الذي كان أحد ضحايا تفجير الفندق وسط عمّان، ليعيش بعاهة استحالت بسببها إمكانية الإنجاب، ما أثار جنون والده «عواد» الذي يأمل بذرية من ولده الوحيد.

«تفاحة العابد»، رواية يتصارع في ثناياها أكثر من جيل وأكثر من فكرة، من دون أن ينتبهوا إلى أنهم ضحايا. كل شخوص الرواية ضحايا. ورغم الجهد العظيم الذي بذله المؤلّف ليلفت انتباههم إلى حقيقتهم المرة، نجدهم قد منحوه الأذن الصماء وراحوا يؤدّون دور الضحية باقتدار من دون انتباه، لكن يبقى عزاء المؤلف بالقارئ، الذي تلمّس هذه الحقيقة منذ الصفحات الأولى للرواية وأصرّ على متابعة أحداثها بمتعة خاصة منحتها سلاسة اللغة وعمقها والطبيعة السردية التي لا ينقصها الحسّ الشعري... فالأب «عواد» الذي يرتبط به أغلب شخوص الرواية، ظهر ليجسد دور المجتمع الظالم، المجتمع المعاق الذي لا يرى سوى الظاهر، ولا يمتلك القدرة على التحليل، وبالتالي لا يمتلك الحلول. مجتمع قاسٍ يلعب بإتقان وإخلاص دور الجلاد على الدوام... فصراع الأب مع الابن، وصراع الأم مع الابنة، صراعات مجتمعية ينتجها انعدام الأفق ورؤية المستقبل... الأم في هذه الرواية نجدها معرّقلة لتحقيق طموح فتاة شابة استطاعت الوصول بجهدها إلى البرلمان، لكن الأم ما زالت تراها طفلة متمرّدة خلعت عن رأسها الحجاب... «الأدهى والأمرّ، أنها صارت تطلع على التلفزيون، وهذا يعني أن خلق الله يرونها وهي «مفرعة» عيب وحرام يا ابنتي... وهذا التلفزيون الذي خرّب العباد، يقول «إنّها رئيسة للنسوان»، سامحك الله وهداك يا ابنتي وأصلح حالك».

«عادل»، بطل الرواية، الشاب الذي فقد «رجولته» إثر انفجار إرهابي حدث أثناء حفلة عرس في صالة فندق وسط عمان، كان الانزواء والشعور بالنقص يهيمن على تفكيره وتفاصيله اليومية، بالإضافة إلى جنون والده الذي صار يُشعرهُ بفقدان رجولته كلّما نظر في وجهه... يصف «عادل» تلك اللحظة (لحظة الانفجار) من خلال مشهد رومانسي لا ينقصه الارتباك..«كان صدرها قريباً من وجهي، رائحة عطرها تغمرني، تلعثمتُ، اقتربتُ أكثر، التصقتُ بالحائط. وفجأة لم أدرِ ما حدث، صوت دوي هائل، انسحب الهواء كله من القاعة، تخيلتُ أن الأرض تنفتح تحت قدَمَيّ، والسماء تقع على رأسي، وغبتُ عن الوعي». لكن عودة الوعي له كان أقسى من تلك اللحظة التي تبعثر فيها الحاضرون أشلاء في ما تبقى من صالة من زوايا وجدران..

صوت العقل في هذه الرواية، يتمثل في شخصية العم «سيف» المثقف القارئ، المناضل الحالم بثمار ثورة أكلت ماكينتها أجمل الشبان، والذي كان ينصح الشبان بالقراءة، كما نصح «عصرية» ابنة أخيه وأخت بطل الرواية بأنّه «لا أحد يمكنه منحكِ جناحين، سوى الكتاب». لكنه في لحظة تأمل مريرة، يجد نفسه ضائعاً وقد اختلّت موازين المعادلة... «ما أن رأيتهم يعتلون السيارات والبواخر ويتوزعون في أرجاء الأرض، حتى أدركت، أن البنادق ستدفن هناك دون مقاتلين. (...) كل شيء أصبح يمشي بالمقلوب. وكأننا لم نحمل بنادقنا ونضحي بأرواحنا، وكأن كل ما كان، مجرد كذبة، انتهى في رمشة عين... كنا أشبه بطفل يتيم، يتنافس الجميع على رعايته، وقبل أن يتعلم المشي، أوهموه أنه قادر على الطيران». تلك كانت لحظة الخيبة التي قادت العم «سيف» إلى أن يصبح تاجر سلاح ويدير صفقات مشبوهة لصالح أخيه «عواد» المنبوذ من قبل الجميع، حيث لا يحبه أحد أو يتعاطف معه، فكل أفعاله تنمّ عن شخصية حقيرة مذنبة على الدوام، حتى الراوي في لحظة صفاء صار يشمت به ومنحه صورة وسمات الغول... «عواد... الماضي هو الظل الذي يتبعك ليفترسك في أول لحظة ضعف تمرُّ بها». وزوجته الثانية «منال» التي تزوجها بغية الحصول على ابن معافى يمكن منحه الأحفاد، ويكون بديلاً عن «عادل» المعطوب، تقف أمامه لتهينه بكل صراحة: «كنتُ كلّ ما تريدني أن أكونه، لكنك سحقتني مثل حشرة تحت نعلك، وسافرت. بعد أن عبأت بطني بقذارتك، لتنجب ولداً. لكنّني منال يا عواد. منال التي استطاعت أن تعيش مع غول مثلك». لكنّ ثمة أمل في الرواية ينيره لنا المؤلف، حين يضع الطبيبة «سماح» في طريق «عادل» المعطوب، فتمنحه نظرة مغايرة لحياته وتأخذ بيده صوب انفتاحات مستقبلية بعيدة عن الانطواء ومرارة الخيبة والشعور بالعجز. «الاشتراطات المجتمعية تفقده كلَّ معنى. فنحن شعوب تتفنن في اغتيال الحب، رغم أنها تدّعيه. (...) الخوف الذي يسبّبه الخذلان يا عادل، يجعلك هشّاً، جباناً، لكنه يورثك القسوة لتحمي بها نفسك». شحنات إنسانية كانت تبثها في روح عادل المنكسرة ليتجاوز محنته، لكنها هي أيضاً منكسرة، وماضيها مترع بالانكسارات: «ولدتُ وكبرتُ على أصوات أعقاب البنادق تدق رأس أبي، ولم أكن قد تجاوزت الثانية عشرة، عندما ذهبنا لاستلام جثة والدي، أمي وأنا». لكنها تظهر الأكثر تماسكاً من بين شخوص الرواية، والأعمق دراية بالحياة التي تعيش، فمن تركيبتها الشخصية نتلمّس نجاح المؤلف في صياغة شخصية منحت الرواية الأمل وبعض التفاؤل الذي سيشهده المستقبل. نصيحة الرواية: «لا تعشق امرأة، ولدتْ من بقايا الرصاص، وأكفان مَنْ دفنتهم. وإن تورطتْ؛ عليكَ أن تكون مستعداً لعبور جهنّم».

لغة سلسة وعميقة وطبيعة سردية لا ينقصها الحس الشعري

سرد

مينا ناجي: عن الفقدان والرهاب والجنون

هدى عمران

صدر أخيراً كتاب «33- عن الفقد والرهاب» (دار المرايا – القاهرة) للكاتب مينا ناجي الذي حاز منحتين أدبيّتين هما منحة التفرّغ للكتابة من مؤسسة «مفردات»، ومنحة دعم الفنانين الاستثنائيّة من مؤسسة «أفاق». ناجي هو كاتب وشاعر مصري، وُلد عام 1987، نشر كتباً أدبيّة تتنوّع بين الرواية والشعر والسرد والقصّة، كما أنه ينتج برنامجاً على منصة يوتيوب يدير من خلاله حوارات حول الثقافة والمعرفة مع كُتّاب مصريّين وأجانب، أبرزهم الفيلسوف سلافوي جيجيك.

يشير الرقم 33 إلى عمر الكاتب، وإلى بلوغه السن التي صُلب فيها المسيح. أمر ذو دلالة داخل وعي كل مسيحيّ. يقول ناجي في مقدمة كتابه «إنّ هذا الرقم موجود في نقطةٍ ما في لاشعور كل مسيحي، ربما كعلامة على اكتمال أو نهاية. وكما أشار فوكو بذكاء، فإنّ عبر طريق الآلام الطويل الذي تبعه المسيح، والذي أخذ فيه على نفسه وَضْمة طبيعة السقوط، كان الجنون هو المرحلة الأخيرة للآلام قبل الموت، لم يخْتَر يسوع فقط أن يُحاط بالجنون، بل أن يُرى في أعين من حوله كمجنون، وبذلك يكون قد اختير في جسده، كل معاناة التعاسة الإنسانيّة. أصبح الجنون إذن، الشكل الأخير، الدرجة النهائيّة لإلهه في صورة الإنسان، قبل اكتمال وخلاص الصليب».

يعتبر الكتاب فصلاً مقتطعاً من سيرة ذاتية للكاتب، أو على الأدقّ فصلين: واحد عن الحداد على فراق الأم بعنوان «الجنّة هي المكان الذي فيه ماما»، والآخر عن تجربة الكاتب مع رهاب الخلاء. كما في مقولة فوكو، فإنّ ناجي يُزامن الموت والجنون معاً لكن بطريقة عكسية. فإصابته بهذا الرّهاب الذي قد يؤدي إلى الجنون وتحطيم الذات، دفعته طوال الوقت للبحث عن الخلاص، للتطهر حتى يستطيع مواجهة الموت المعنوي والموت المادي الذي تحقق بموت الأم. لذلك فهو يتعامل مع الكتابة باعتبارها جنوناً مضاداً للجنون الفعلي، جنوناً منظّماً يحاول السيطرة على العقل في إتجاه آخر. في فصل «الحداد»، يدمج ناجي يوميّاته بعد وفاة أمه مع قصائد عنها وعن الموت، يتدرّج الحزن من عدم التصديق والهلع من عدم وجودها، إلى الفراغ الذي سبّبه رحيلها المفاجئ، إلى محاولةٍ لتقبّل الحقيقة واختراع حوار بينه وبينها ممتدٍّ من الأرض إلى السماء.

على غرار الفيلسوف الفرنسي رولان بارت، يكتب ناجي يوميات الحداد، باحثاً عن أمه وصانعاً أيقونتها الخاصة من صورتها طفلةً باسمةً على الشاطئ، ليذكّرنا بأنّ حزن الإنسان على أمه واحد في كل مكان وفي كل قلب. يفلت ناجي هذا الحزن العاصف بهدوء «مسيحي» ـ إذا استطعنا تسميته ذلك ـ بشاعريّة مطلقة. يبدو هنا الصّراخ ممتداً بلا صوت، ينخر موضع الألم بصمتٍ ودأب. يقول ناجي: «عند الموت، يتحوّل جسد المحبوب إلى عدو . كيانٌ عدائي ومصدر أفكار مرعبة تدمّر الأعصاب. فهمت كيف تشكّلت عقيدة صعود العذراء إلى السماء بالنفس والجسد. فساد جسد المحبوب أمرٌ لا يمكن تخيّله دون أذىً حقيقي، تحديداً جسد الأمّ كما تمثّله العذراء في المسيحية».

يصدر ناجي الفصل الثاني من الكتاب بجملة جيمس جويس «التاريخ كابوس أحاول الإفاقة منه». يمضي في سرد تجربته الخاصة مع رهاب الخلاء الذي يمنعه من الذهاب إلى أماكن لا يعرفها، فكل مكانٍ غريب هو خطر ومهدد في عقل الأغورافوبي، الذي يحوي داخله غالباً شعوراً بالعجز والوضاعة والذنب يصاحبها شعور غير معترف به عادة بالحقد والرغبة في الانتقام. الألفت هو محاولة ناجي تحييد مرضه، والسيطرة عليه من خلال تحليله وفهم دوافعه والارتقاء به من مجرد مرض شخصي مدمّر إلى دافع لخلق الفكر، وتحليله كإطار لظاهرة إجتماعية وثقافية يتسم بها العصر الحديث.

استخدم ناجي رهابه كمنظور جديد لتحليل المجتمع الحديث، والقفز على أزمة العالم بعد الاحتجاز الذي سبّبه الوباء العالمي، وطرح أسئلة تخص القاهرة كمدينة غرائبية ومرعبة في بعض الأوقات.

يحلل ناجي الأغورافوبيا كعارض أقليّاتي ـ كما يطلق عليه ـ يصف وضع الأقباط في مصر، بعيداً عن المظلومية المعتادة في السردية المسيحية السائدة للوضع في مصر. يكتب ناجي من موقعه داخل أقلية كاثوليكية محاطة بأقلية مسيحية أرثوذوكسية محاطة بأغلبية مسلمة سُنية، تدفع الأقلية الكبيرة أبناءها لتتحدد داخل منطقة اجتماعية-هويّاتية، مستخدمين آليات التجنّب والاعتمادية، خوفاً من الآخر العدو، وقد ساعد على ذلك أسلمة المجال العام على مدى عقود، وهذا يفسر ببداهة أنّ الكاثوليكي قد يصاب بالأغورافوبيا في موقعه داخل هامش الهامش.

يرى ناجي أنّ جانباً آخر من الأغورافوبيا الإجتماعية، يتّسم بها النضال السياسي والإجتماعي المعاصر، بحيث أصبح المجال العام فضاءً للحقد العام، مغلّفاً بثياب أخلاقية مضمونها الرغبة في الانتقام من الآخر. وهذا ينطبق في رأيه على الجماعات السياسية وحركات التحرر النسوي وجماعات التعدّد الجنساني وغيرها التي ليس هدفها إيجاد حلول بقدر نفي الآخر المغاير. وبرأيه أن كل هذا ينعكس على «منطق الفن السائد» الذي يقوم على إشباع الرغبات بشكل متخيّل، لتحويل العجز الإنساني إلى شخصيّاتٍ خارقةٍ إلى درجةٍ كاريكاتورية.

يصف وضع الأقباط في مصر، بعيداً عن المظلوميّة المعتادة في السردية المسيحيّة السائدة

أوراق

الإلـه دأي العـربـي

زكريا محمد*

في حملته على الجزيرة العربية، قدّم لنا الإمبراطور الآشوري أسرحادون (680-669 ق.م) أسماء عددٍ من الآلهة العربية القديمة. بعض هذه الأسماء واضح ومعروف، لكنّ الغالبية غامضة، وليس من السهل ردّه إلى الآلهة التي نعرفها:

«واستولى والدي، سنحاريب، على أدوماتو، حصن العرب، وغَنِم ممتلكاته، وأصنامه، كما أسر أسكالاتو ملكة العرب، وجلب كل هذا إلى آشور. وقد جاء حزائيل، ملك العرب، حاملاً معه الهدايا إلى نينوى، المدينة التي أحكمها، وقبّل قدمي. لقد رجاني أن أعيد أصنامه، فرحمته. وقد أصلحت الضرر الذي حلّ بأترسمين، داي، نُهى، رولدايو، أبيريللو، وعترقوروما، آلهة العرب، وأعدتها له بعد أن وضعت عليها نقشاً يعلن هيمنة إلهي آشور، إضافة إلى اسمي» (Ancient Near East Texts Relating to the Old Testament، Edited by Lames B. Pritchard، Third Edition، 1969. Princeton University Press، Princeton- New Jersey، Page 291).

وكما نرى، فلدينا في هذا النصّ ستة من الآلهة العربية: أترسمين، داي، نُهي، رولدايو، أبيريللو، أتر قوروما. وقد ورد اثنان من هذه الآلهة في نقوش شمال الجزيرة العربية، وهما: نهى وعتر سمين أو أتر سمين، بذا فأمرهما واضح ومحسوم. أما الأسماء الأخرى، فلم ترِد في النقوش. وقد انصبّ جهد كبير لفهم الاسم «رولدايو»، وافترض أنه الإله «رضى» أو «أرصو». وهناك من ربط هذا الاسم باسم الإله العربي الذي أورده هيرودت في تاريخه «أروتالت» أو «أروتال» كما في نسخة أخرى. ونحن لا نرى أي وجه جدي للشبه بين الاسمين.

على أي حال، فنحن سنركز جهدنا هنا على الإله «داي» أساساً، مع تعرض أبسط لـ «رولدايو» لأننا نعتقد أن ثمة علاقة بين الاسمين.

* الإله الغراب

ويمكن رؤية الشبه بين «داي، دأي» وبين القسم الثاني من الاسم «رول- دايو». وهو ما قد يشير ربما إلى أن الاسم «رولدايو» ربما كان اسماً مركباً مكوناً من اسمين: «رول + دايو»، حيث دايو هو «داي» ذاته. عليه، يكون الاسم «داي» قد ورد مرتين في النص الآشوري؛ مرة وحده، ومرة ضمن تركيب. والسؤال هو: من هو الإله داي أو «دأي» هذا؟

وجوابي هو: يبدو أنّ لهذا الإله علاقةً ما بالغراب. ذلك أنّ الغراب بالعربية يُدعى «ابن دأية». والمناسبة اللفظية قوية جداً بين «داي، دأي» أسرحادون وابن «دأية» الغراب. وفي اللغات السامية الأخرى، نجد أن اسم الغراب هو «داي» وليس ابن دأية. ومنه في ما يبدو أُخذ اسم العلم «دأية» في النقوش الصّفوية والمعينية: «وهو علم بسيط، اشتقاقه من دأية أي (الغراب) الذي عرف أيضاً [دأيه] في العهد القديم... أما في النقوش الأوغاريتية، فجاء بصيغة دأي بمعنى «طائر، طير»» (سليمان بن عبد الرحمن الذييب، نقوش صفويّة من شمالي المملكة العربية السعودية، مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية، الرياض، 2003م، ص 35).

وتقدّم لنا المصادر العربيّة تفاسير صعبةً وغامضة لاسم «ابن دأية» هذا. فهي تُجمع تقريباً على أن الاسم أتى من علاقة الغراب بدأية البعير، أي فقار كاهله: «العرب تسمي الغراب ابن دأية، لأنه إذا وجد دَبَرَة في ظهر البعير، أو في عنقه قرحة، سقط عليها، ونقره وأكله، حتى يبلغ الدايات» (الجاحظ، الحيوان). ويضيف الزمخشري: «نعب ابن دأية أي الغراب، نسب إلى دأية البعير وهي فقارته لوقوعه عليها إذا دبرت» (الزمخشري، أساس البلاغة). وعن ابن الأعرابي: «الدأيات أضلاع الكتف وهي ثلاثة أَضلاعٍ من هنا وثلاثة من هنا، واحدته دأية» (لسان العرَب). وقال بعضهم إنها خرزات فقار العنق بالذات.

إذن، فقد سمي الغراب بابن دأية لأنه يقع على ظهر البعير المنفرد وينقر دبرته حتى يصل عظام فقراته. غير أننا نشكّ في هذا التفسير الغريب وغير المقنع، رغم أنه لا يمكن تجاهل الشبه اللفظي بين «دأية» البعير و«ابن دأية» الغراب.

ولدينا بيت شعري معروف للشماخ يمكن أن يفيدنا في كشف هذه العلاقة الملغزة بين كنية الغراب وبين دأية البعير: حمراء من معرضات الغربان/ يقدمها كل علاة عليان. وتُجمع المصادر العربية على أن «معرضات الغربان» في البيت إشارة إلى طراز من النّوق التي تحمل التّمر على ظهورها: «هذه الناقة تتقدم الحادي والإبل، فلا يلحقها الحادي فتسير وحدها، فيسقط الغراب على حملها، إن كان تمراً أو غيره فيأكله، فكأنها أهدته له وعَرَضَته» (لسان العرب). يضيف ابن قتيبة: «حمراء من معرضات الغربان، يريد: أنّها تتقدم الإبل وعليها التمر، فتقع الغربان عليها، فتأكل التمر. فكأنها هي أهدته إلى الغربان» (ابن قتيبة الدينوري، غريب الحديث).

إذن، فثمّة طرازٌ محدّد من النّوق تحمل تمراً على ظهورها، وتتقدم الإبل مبتعدةً عنها مسافة، فتسقط عليه الغربان وتأكل من الحمل من دون أن تخشى شيئاً. وهذه النّوق تسمى «معرضات الغربان». والذي يجب الانتباه إليه هنا هو أن كلمة «المعرضات» تعني عارضات الهدايا في ما يبدو. إذ إن: «العراضة: هدية القادم خاصة» (الميمني، سمط اللآلئ). ويقال: «العراضة الهدية والطعام تجعله عرضةً لأهل المياه» (ابن سيده المخصص).

إذن، فمعرضات الغربان تعني: «حاملات هدايا الغربان» أو ربما «هدايا الغربان» مباشرة. هذا يعني أنّ التمر على ظهور هذه النّوق هو هدية للغراب. إنها هدية تهدى إليها، وليس «كأنها قد أهديت». فهي تحمّل بالتمر، وتُترك في مقدمة القافلة، وبعيداً عنها، كي تأكله الغربان بلا خوف. بذا، فالغراب لا يذهب سارقاً إلى هذه النّوق. بل يذهب ليأخذ هدية ما، أو حقاً ما يأخذ شكل هدية. ولا يمكن أن يكون هذا الكرم تجاه الغراب بلا سبب. إذ لا بد أن يكون الغراب ممثلاً لإله له الحق في التمر المذكور، وأنه يأخذ التمر نيابة عن هذا الإله. ونحن نعتقد أن هذا الإله هو الذي ورد في النص الآشوري: «داي، دأي». ومن أجل هذا سمّي الغراب ابن دأيه، فهو ابن هذا الإله، أي تجسيده وممثله.

* الغراب وحجلته

ولدينا هذا الرجز الذي يؤكد أن التمر من حق الغراب، وليس غنيمة يخطفها من ناقة ابتعدت عن الركب:

قد قلت يوماً للغراب إذ حجل
عليك بالقود المسانيف الأول
تغذ ما شئت على غير عجل
التمر في البئر وفي ظهر الجمل

فههنا يحجل الغراب طالباً حقه في ما يبدو، فيخبره الراجز أن يذهب إلى الجمال المتقدمة (القود المسانيف الأول) كي يأكل من التمر الذي على ظهورها ما شاء على غير عجل، أي بأمان ومن دون خوف أو وجل. وهذا يعني أن القود المسانيف هي «معرضات الغربان». ويبدو أن عظمة كاهل الجمل سميت «دأية» لأن الغراب يقف عليه حين يأتي ليأكل تمرته، أو لأن حمل تمره يوضع عليها.

لكن الرجز السابق يعطينا معلومة إضافية. إذ يبدو أن هدية الغربان من التمر توضع على ظهر جمل أو في بئر محدد. «التمر في البئر وفي ظهر الجمل». وقد اهتمت المصادر العربية بحكاية البئر، وحاولت أن تجد له تفسيراً، فأضافت لنا معلومات عن هذا الطقس الديني، طقس هدية الغراب. والشائع في تفسير موضوع البئر هو كما يقول الميمني: «يقول: يا غراب، إن أفنيت ما عليها من التمر [أي ما على ظهور الإبل]، فإن الماء إذا استقى من البئر على ظهر الجمل خرج الرطب وجاء التمر» (الميمني، سمط اللآلئ). وهذا تفسير معقول. فالتمر في النهاية نتاج ماء البئر. لكنه ليس مؤكداً. إذ من المحتمل أن التمر الخاص بالغربان كان يوضع على ظهر الجمل أو في بئر محدد. على كل حال، فالميداني يخبرنا أن للتمر الذي في البئر قصة محددة: «أصل ذلك أن منادياً فيما زعموا كان في الجاهلية يكون على أُطُم من آطام المدينة حين يدرك البُسر، فينادي: التمرَ في البئر، أي من سَقَى وجَدَ عاقبة سقيه في تمره» (الميداني، مجمع الأمثال).

إذن، فحين يدرك ثمر النخيل، أي ينضج في وقته المحدد من السنة، يقف مناد ما على أطم (حصن) في المدينة ويقول: إن التمر في البئر وفي ظهر الجمل. وهذا الكلام موجه للغراب الذي يقال له ما معناه: اذهب وكل تمرك أو خذه، سواء كان في البئر أو على ظهر الجمل. فهذا التمر ضريبة سنوية تتلقاها الغربان في كل عام في هذا الوقت من السنة. ولعله لهذا السبب سمي صياح الغراب بالتعشير. والتعشير هو ضريبة العشر على المزروعات.

وكأن تعشير الغراب محدث
أن الخليط يحل في تعشار

وهذا يعني أن صياح الغراب يمثل طلباً للعُشر، أي للضريبة التي تستحق له من أهل التمر. بذا فالغراب جامع أعشار باسم الإله الذي يمثله.

* تمرة الغراب

ولعل في المثل العربي القديم المعروف «وجد تمرة الغراب» ما يدعم تحليلنا. فهو يعني من وجهة نظرنا: وجد ما يرضيه، وليس كما فهمته خطأ المصادر العربية. وهذا يعني أنه وجد هديته، أو الضريبة التي وضعت له في البئر أو على ظهر الجمل، الأمر الذي يجعله يهدأ ويسكت. وهو ما يشير إليه الزمخشري: «وجد عنده تمرة الغراب: أي، ما أرضاه» (الزمخشري، الكشاف).

في كل الأحوال، فالتمر ليس على ظهور المعرضات أو القود الأول فقط، بل أيضاً في بئر ما، كما أخبرنا شطر الرجز السابق، فماذا يعني هذا؟ والجواب كما يلي: البئر هو الماء السفلي. والغراب على علاقة بالماء السفلي. بالتالي، فالماء الذي يسقي النخلة هو ماؤه. وهذا ما يذكرنا بما قاله لنا ابن سيده في مقتبس سابق من أن العراضة - الهدية تقدم لأهل المياه: «العراضة الهدية والطعام تجعله عرضةً لأهل المياه» (ابن سيده، المخصص). وأهل المياه تعني: أصحاب المياه. وأصحاب المياه هنا هم الغراب والإله الذي يمثله.

يؤيد هذا أن الغراب في المصادر السومرية هو من زرع أول نخلة في الكون، بتعليمات محددة من الإله «إنكي»، الذي هو إله الماء السفلي. وهو لم يزرعها فقط، بل سقاها بالشادوف، وهو أمر لم يكن له مثيل من قبل: «أن يقوم طائر كالغراب بعمل إنسان، وأن يجعل الشادوف يصعد ويهبط، أن يجعله يهبط ويصعد! فمن رأى مثل هذا يحصل من قبل؟». أما النخلة التي زرعها فكانت: «شجرة تنمو إلى الأبد. أوراقها الإبرية تحيط بقلبها. طلوعات فسائلها تصلح مقياساً للمساحين، ولحدائق الملوك. أغصانها تستخدم كمكانس لتنظيف القصور الملكية. وتمرها الذي يكوم قرب الشعير المنقى، يصلح لمعابد الآلهة العظام» (Gilgamesh، and the Huluppah Tree translated، by S.N. Kramer، 1938، URL:from: http://www.mythome.org/ mythhome.htm).

وهكذا، فكل شيء يشير إلى علاقة وطيدة بين الغراب والنخلة، وبين الغراب وآلهة الماء السفلي مثل إنكي. لذا ليس من الغريب أن تكون له حصة من التمر. فالتمر نما وغلّ وأثمر على مائه.

* الزماح

ويبدو لنا أن طائراً آخر يُدعى الزماح، يضرب به المثل في الشؤم، على علاقة بالغراب ابن دأية هذا في ما يبدو. وقد أخبرنا أنه كان يقف على أطم من آطام المدينة، حسب بعض الروايات، أو فوق البيوت حسب رواية أخرى: «أشأم من الزماح طائر كان يقع على دور بني خطمة من الأوس بالمدينة، ويصيب من تمرهم، ثم يطير، فلا يعود إلى العام المقبل، فرماه رجل منهم بسهم فقتله وقسم لحمه، فحال الحول ولم يبق ممن أكل من لحمه ديّار» (أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال).

وهكذا، فالرماح يأتي مرة في العام، فيصيب التمر من دون أن يتعرض له أحد. ويمكن لنا أن نفترض أن التمر كان يوضع للغراب والزماح في بئر محدد في الحصن. غير أنّ الغدر بالزمّاح أدى إلى الكارثة. ويمكن لي أن أقول إنني عثرت على اسم الإله الذي نتحدث عنه بصيغة «دأية» في مقطعية جبيل التي يعود أقدم نصوصها إلى ما قبل القرن الثامن عشر ق.م. نجد هذا الاسم في السطر العاشر من اللوح البرونزي (دي):

العلامة الاخيرة المتضررة من الكلمة تمثل صليباً مطروحاً افقياً وهي مقطع التاء. بالتالي فالاسم يقرأ هكذا: «دأية». اما العلامة الثانية، التي تشبه طبقاً مقلوباً، فعلامة مخصصة لا صوت لها. وهي توجد دوماً مع اسماء الآلهة في نقوش مقطعية جبيل. وإذ كان زعمي هذا صحيحاً، فالإله «دأية» أو «دأي» ربما كان معبوداً في الألفية الثالثة قبل الميلاد.

أخيراً، يمكن للمرء أن يتساءل عن إمكانية وجود علاقة بين «داي، دايو، دأية» وبين القسم الأول من اسم الإله اليوناني ديونيسوس المكون من قسمين: Dio-nysus (ديو + نيسوس)، أي بين «داي، دايو Dai, Daiu» و Dio. والتوافق بينهما قوي، بل ومدهش حتى. أما القسم الثاني «نيسوس»، فيعتقد كثيرون أنه ربما عنى: الشجرة. وهكذا فديو Dio طائر مرتبط بشجرة، مثلما أن داي- الغراب مرتبط بالنخلة. هذه مجرد فرضية، كنت قد اقترحتها منذ ما يقرب من عقدين من الزمان

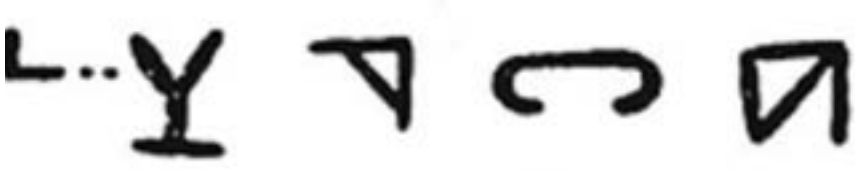

الغراب في المصادر السومرية هو من زرع أول نخلة في الكون بتعليمات الإله «إنكي»

* شاعر فلسطيني